الزحف الأبيض وغربة الانسان

د. عبدالرزاق جعفر

قمت بزيارة خاطفة للمملكة العربية السعودية ، في شهر نيسان من عام ١٩٨٦ ، وحظيت بلقاء بعض كتابها وشعرائها ومثقفيها ، أمضيت في تلك الربوع المقدسة الجميلة أسبوعين حافلين سعيدين ، تنقلت فيهما بين بعض المدن ، وزرت بعض الجمعيات والنوادي الادبية ، والصحف اليومية ، والمجلات الدورية ، وعدت الى بلدي حاملا معي ذخيرة من الكتب والذكريات الطيبة .

وكان ألطف ما عدت به كتابا صغير الحجم كبير الفائدة ، يضم مجموعة قصص كتبتها امرأة تدعى " لطيفة ابراهيم السالم " ، وأصدره " نادي القمة السعودي " التابع للجمعية العربية السعودية للثقافة والفنون في الرياض ، وهذا الكتاب هو ما أريد أن أحدث قرائنا عنه . وذلك لسببين ، أولهما أنه سحرني ، وثانيهما أن كاتبته امرأة .. ومن السعودية ، فأنا لم أكن أتصور أبدا أن تكون المرأة في السعودية قد وصلت الى هذا المستوى الرفيع من اتقان فن كتابة القصة والى هذه القدرة على التحليل النفسي للانسان ، وعلى استخلاص القمة الجميلة من الحدث اليومي البسيط الذي قد لا ينتبه اليه الانسان العادي او الانسان الذي شغلته أمور الدنيا التافهة .

في المملكة العربية السعودية كاتبات كثيرات ، يلحظ وجودهن أي قارئ للمجلات الدورية وأي متصفح للصحف اليومية ، ولهن أركان وزوايا ثابتة وغير ثابتة يكتبن فيها أو يشرفن عليها وهذه الزوايا والاركان ناجحة جدا . وموضوعاتها دسمة ، وكاتبتنا ، لطيفة ابراهيم السالم ، " نشيطة تكتب في الصحف السعودية ، تنشر الكثير ، وينشر عنها الكثير . وهي متميزة بأسلوبها الهادئ وفنها المحكم ، وجملتها القصيرة ، وقدرتها على رؤية ما بين السطور وما وراء الاحداث اليومية الجارية ، وتمكنها من العرض الجميل الجيد المتقن الذي يرغم القارئ على متابعة الحدث وهو يلهث بسعادة .

الكتاب الذي أود الحديث عنه هو " الزحف الأبيض " . وهو باكورة أعمال الكاتبة ، لا يتجاوز عدد صفحاته مئة وعشر صفحات ، يضم بين دفتيه ثلاث عشرة قصة قصيرة .

قدمه " نادي القمة " بقوله :

" لعل اصدار نادي القمة السعودي على تقديم هذه المجموعات القصصية لكتاب القمة الشباب ، في بلادنا ، دليل على المواكبة والمشاركة لدفع عجلة الثقافة والفن ، وتقديم الكلمة الناضجة للقارئ ليس داخل حدود الوطن ، وانما للقارئ العربي في أي مكان .

ونحن بدورنا ،من خارج حدود الوطن السعودي ، ولكن ضمن حدود الوطن العربي ، نقول : " لقد كنا سعداء جدا بهذه الكلمة الناضجة ، فقد استمتعنا بها كثيرا ، وقد هزتنا هزا .. وبينت لنا ان الفتاة السعودية أخذت تشارك أختها في بقية الاقطار العربية ، في الكتابة عن موضوعات تخصها وتخص العائلة العربية والمجتمع العربي في كل مكان ، ولا تتجح في بحثها الا المرأة ، فقد مضى ذلك الزمن الذي كان فيه الرجل وحده يبحث عن قضايا المرأة ويكتب عن شؤون المرأة .. فلقد استلمت المرأة القلم بيدها .. " . ولهذا فأنا أكاد أجزم أن الكاتبة العربية السعودية لن تمضي عليها سنوات قليلة حتى تحتل مقام المنارة في ميدان الادب النسوي ..

ان مجموعة القصص في كتاب

" الغزو الابيض " ممتعة جدا • وهي تطلع القارئ العربي وغير العربي على أمور عديدة تشمل العائلة السعودية الحديثة المتطورة ، ووضع المرأة السعودية المتفتحة فيها ، وموقف الرجل السعودي منها ، في هذا القرن ، وتدرس ذلك الصراع القائم بين عقلية تريد ان تجر العربة الى الوراء ، وارادة قوية تسعى نحو التحرر والانعتاق ، وتركز على كرامة المرأة وعواطفها وانسانيتها التي لا يريد الرجل أن يعترف بوجودها •

وهذه المجموعة تطلع القارئ العربي أيضا ، خارج حدود المملكة العربية السعودية ، على أمور كثيرة لم يكن يعرفها ، عن الحياة الاسرية والاجتماعية والعاطفية في ذلك البلد الامين ••

لهذا فأنا أتمنى لو أن كل مواطن ، في العالم العربي ، يتمكن من قراءة هذه المجموعة كما قرأتها ، ولما كان ذلك مستحيلا ، ولما كنت أحب أن يشاركني عدد كبير من المثقفين هذه المتعة ، فانني سوف أحاول ، قدر المستطاع ، تلخيص قصص هذه المجموعة ، لكي أعطي فكرة سريعة شاملة عنها ، وعن الجهد الذي بذلته الكاتبة ، ونناد القمة السعودي ، في سبيل اخراجها الى النور ، وأنا واثق أن هذا العرض الموجز لا يغني عن قراءة المجموعة كاملة كما أنني أرجو ان أكون قد وفقت في اعطاء فكرة واضحة عن هذا العمل الادبي الرفيع دون أن أشوهه •• فأنا حسن النية •

- القصة الاولى " الميت الذي ضاع " تصور فيها الكاتبة رجلا قض في السجن خمسة عشر عاما ، دون أن تبين جريمته ، وهو يستعد للخروج من سجنه ، لم ينم ليلة اطلاق سراحه ، كان يشعر بأنه سوف يولد من جديد •• وكان يمني نفسه الاماني لكنه ، حين خرج الى النور ، ولقي أهله اكتشف وجود كثير من الحواجز بينه وبينهم وأحس أن أعصابه تكاد تنفجر ، وأنه متعب غريب ، فيستأذن ويخرج الى الطريق لكي تنفس بعض الهواء ، ويريح أعصابه ورغم أن أهله ينتظرونه في التاسعة ، الا أنه لا يعود • بل ظل يسير •• ويسير •• نحو " لا هدف " •

هذه القصة تحمل كثيرا من المشاعر الانسانية وتطرح موضوع غربة الانسان ، الانسان الرقيق الحساس ، في مجتمعه وبين أهله الذين تلهيهم توافه الامور ••

أما القصة الثانية " الوهم " فتتحدث عن موظف في العقد الرابع من العمر ، لكنه يبدو أكبر سنا ، يفرض احترامه على زملائه ، بصمته وانصرافه الى عمله ، وعزوفه عن الناس ، وكل الناس يريدون معرفة سبب عزوفه عنهم واكتشاف سره ، كان هذا الموظف ، في صباه ، معجبا ببنت عمه الصغيرة الطفلة التي كانت تقدم له الشاي ، وكان يساعدها في عملها المدرسي ، تمر الايام •• ويهاجر الى مدينة أخرى •• لكنه يظل يعيش مع ذكرى بنت عمه التي تصبح كل حياته فيهجر الدنيا لكي يعيش معها ، يطلبه المدير ، ينبئه بالترقية ويمنحه اجازة شهر للراحة ، رحل الى مدينته ، بحث عنها بعد غياب خمسة عشر عاما • دق احد الابواب ، خرج له طفل ، طلب ماء ، سأله عن نسبه فتبين له أنه ابنها ، ثم يلتقي بها ، يسلم عليها ، يعرف منها أن عندها خمسة أولاد•• فيودعها ويعود •• وكأنه يودع حلمه الطويل الجميل •

قصة جميلة تصور لنا روعة الاحلام وشدة الصدمة حين يستيقظ الحالم فيعود راضيا بما أصابه •• ويغرق في العمل •• لكي ينسي الصدمة ••

انها شبيهة بالقصة الاولى •• تلح على غربة الانسان في مجتمع لا يحس به وبمتاعبه فينطوي على ذاته بدلا من محاولة تغيير الواقع •• اذ أنه يحس في أعماقه أنه عاجز وحده عن فعل أي شيء فيستسلم ويستكين •

وأما القصة الثالثة " الزحف الابيض " ، فهي التي جعلت عنوانا للمجموعة كلها ، وتلخص في وصف حياة أم تفني نفسها وتبذل جهودا جبارة في النهار ، في خدمة أولادها وزوجها ، تعد أولادها للمدرسة ، وتقدم لهم الطعام ، وتنظم البيت ، وتستعد لاستقبال الرجل المتعب والاطفال العائدين ، لقد كان حلمها أن تبني أسرة سعيدة ، وحين تبقى وحيدة •• وفي لحظة انهماكها في تأملاتها •• تكتشف خيطا أبيض يسكن في مفرق شعرها الغزير •• شعرة شائبة •• وقبل أن تتمكن من اخفائها ، أوانتزاعها يعود الاولاد صاخبين ، فتنتفض فيها الحياة من جديد ، لأنها رأت أولادها ، حصادها ، أمامها ، شعر الاولاد بوجود شيء ، لكنهم لم يفهموا •• تلتفت اليهم وتقول : " لماذا لا تأكلون ؟ هيا • •

تأكل الطعام قبل أن يبرد .
رائعة .. هذه القصة .. ومليئة بالمشاعر التي لا يفهمها أحد سوى الام .

وفي القصة الرابعة " الزمن الإسطورة " تحدثنا " لطيفة ابراهيم السالم " عن امرأة تفقد شبابها واعصابها مع زوج كانت تحلم في أن يتغير ، لكنه طول عشر سنوات ، لم يحس بها .. سحق شخصيتها .. دمر استقلالها الذاتي .. كان يطالبها أن تصبح ظلا .. لاصوت .. لا حق .. لأنه ، هكذا وجد أمه وأخته . ومع ذلك .. يظن هذا الزوج المحترم أنها هي التي قيدته واغتالت روح المرح عنده واللهو ، بأطفالها ومطالبها وزياراتها ، دون أن يعترف أبدا ، أن هناك أي حق لأي انسان على وجه الارض لديه لأنه خلق طائرا حرا مغردا ..
طلب منه الاهل والاصدقاء ان ينتظر لأن الزمن كفيل بتغييرها ،
ومضت عشر سنوات .. وثلاثة أطفال .. وهي هي .. تمنى لو لم يتزوج لانها تدمره فعلا ، ثم نفذ صبره ، وفي ساعة من ساعات "عنجهية الرجل" يصيح بها :
" لم أعد أطيق هذا السجن .. أنت طالق .. هكذا .. بكل بساطة .. بالظلم الرجال .. وأنانيتهم .. انهم يرون أنهم الوحيدون الذين يملكون الحق في نبذ المرأة في أي وقت يريدون .. لأنهم القوامون ..

وفي القصة الخامسة عرض على المسرح الاخر " تصف لنا الكاتبة حياة امرأة شابة ولدت وولد معها " شيء اسمه التخوف من الماضي والحذر من المستقبل" تميل الى رجل . تشعر أن الفرصة أتيحت لها كي تعيش معه عمرا رائعا . يسألها : " أتخافين من شيء ؟ أتخافين على نفسك مني ؟ فلا تجيب .. تظل خرساء ، لكن براكين العالم تثور ، فيداخلها ، انها تعيش في صراع نفسي قاتل بين ما تريده فعلا وما في داخل النفس . ثم تعود لتدخل قوقعتها وتسلم قدرها للرياح ، وعندما يرتفع ستار الحقيقة أمامها تكتشف أن المسرحية . التي طالما عرضها على مسرحها ، كان يعرضها ، وفي الوقت ذاته على أكثر من خشبة مسرح
انها قصة تعبر تمام التعبير عن واقع المرأة المستكينة والرجل الثعلب او الرجل الذئب .. اوالرجل الذي يضع على وجهه قناعا أو أقنعة .. ولا يعرف أحد كنهه .. لأنه رجل .. أما المرأة فلا يحق لها أن تعترض .. لأن المجتمع مجتمع رجال .. والرجال هم الذين يفرضون القوانين فيه .

ونرى في القصة السادسة : قطرة دم " شابا يجتاز وضعا خطيرا لأنه فقد جزءا كبيرا من دمه . وفصيلة دمه من النوع النادر . فيبقى في غيبوبة . تجرى حياته أمامه ، فيرى نفسه وهو يجمع ويجمع . ثم يرى زوجته وأولاده ، فيحس بالفزع والوحدة ،وينادي : " خذوا كل هذه الاموال ، مقابل الدم ، ثم يصيح انتظروا .. انتظروا .. سامحوني .. . سأعيد لكم ما أخذت منكم ..لا أريد شيئا .. ثم يبكي ، يبكي الرجل ، ويروح في غيبوبة عميقة ، وينقذه الطب في آخر لحظة .

الموضوع مطروق ، وقد نوقش كثيرا لكن براعة المؤلفة تتجلى في حبكة القصة وفي رغبتها الداخلية في أن ترى هذا الرجل الجبار القسوي الذي يجمع المال ويظلم الناس وهو يبكي ويستنجد ..وكأنها تريد أن تشمت به .

في القصة السابعة ، " اغتيال الفرح " نعيش مع امرأة شابة مطلقة ، تجلس وحيدة ، وتجتر ذكريات لقاء أول جرى منذ عام ، فتبعث فيها الروح ثانية انها تبحث عن سعادة مفقودة ، وترجع بالخذلان ، لقد كبرت احلامها ، لكن الحواجز كانت أكبر " يقول لها : " أنت قدري ، ولن يحول بيني وبين قدر أحد " تحذرها والدتها : " أنت مطلقة ومعك بنت ، وهو لم يتزوج بعد .
لكنها تعصي أمها ، ولكن الاذن لاتسمع الا ما تود ان تسمعه ، تصبر لأنه قال لها : " ماضيك لا يهمني .. أنت مظلومة ، وأنا سأعطيك الحب والحياة ، وابنتك ابنتي .. ربما أعز .. يد أن أهله يحاصرونه .. فيقترح عليها : " لماذا لا أتزوج التي اختاروها لي لأرضيهم. ثم أطلقها بعد شهر ، شهرين ، لأصبح مطلقا مثلك وأتزوجك ، فترد عليه وهي خائفة ، " افعل ما تراه مناسبا ، القرار لك . انت الرجل وأنا سأقبل .. لم تصرح ..لم تتألم .. لم تتمرد ، بل بالعكس مارست الفرح والرقص .. وفقدت الاحساس .
كان الرد الطبيعي عندها هو التمرد والاحتجاج والدفاع عن كرامتها وكرامة تلك المرأة التي سيتزوجها ويطلقها ، هذا اذا وفى بوعده ، لكن المؤلم أنها خضعت واستكانت .. وبذلك بلغت القصة منتهى روعتها ، وبينت مدى

خضوع المرأة للرجل حتى لو كان مزواجا مطلاقا ..

أما في القصة الثامنة " الحوار الاخرس " فنرى امرأة تشترك في رحلة مع رفيقات لها ، في سيارة تلتهم الطريق ، تناجي نفسها ان كل شيء انتهى ، بل يجب أن ينتهي ، اذ قررت ان تنزع قلبها من ضلوعها وتغرقه في أمواج البحر الهائجة . ضجة الزميلات حولها تملأ السيارة . كل من حولي سعيد بهذه الرحلة حاولت أن تجعل الرحلة رحلة نسيان ، لكنها لم تستطع ، الصديقات يحاولن انتزاعها من سجنها ، ترفض كل نصيحة ، انها تريد أن تبقى معه . لاتستطيع أن تنساه لأن النسيان انتحار . يحذرها الناس حولها ، يجب أن تعلمي ان المرأة تختلف عن الرجل ، احذري سمعتك .. مكانتك .. أنت الضحية .. أنت التي تدفعين الثمن .. وتطالبها صديقاتها

بقطع صلتها به ، لكنها تكرههن ..تذكرت أنها سألته النصيحة أمس وكان رده : لابد للناس أن يتكلموا ! لأننا نفعل الشيء الذي يرفضونه الشيء الذي لايقره المجتمع فاذا لم تعودي قادرة على تحمل كلام الناس فأنت حرة ، تعلمين أنني لن أستطيع أن أفعل شيئا لأنني لم أعدك بشيء ، والخيار لك .." فهربت منه دون أن تنطق ..

لقد كان ذلك أبلغ رد على هذا الرجل الذي لا يشعر .. ولا يحس ..فيظلم المرأة التي يزعم أنه يحبها .. دون ان يعرف أنه يظلمها .. ولكن .. ماذا كان موقفه منها عندما تركته وانصرفت ؟ هل أصابه الندم ؟ أم أنه ذهب يبحث عن صيد آخر أسهل ؟

ويبلغ الالم منتهاه في القصة التاسعة التي وضعت لها عنوانا " بكاء في حلقي " انها حادثة بسيطة جدا الا انها مفعمة بالمعاني ، تدور حول مغامرة عابرة استمرت حديثها للمجتمع المغلق الجائع شهورا . ملخصها أن امرأة ذهبت مع زوجها الى حفلة ، وأرادت ان تفتح صدرها للهواء ، وأن تعيش عمرها بكامله بكل تناقضاته واحساساته .. وأخطائه أيضا .. اذ انها - حسب رأيها - تجد في ذلك أروع ألف مرة من أن تقبر وجودها في صقيع أبدي ، فانطلقت في السهرة انطلاقا لا حدود له ، وتحدثت مع الحضور جميعا ، وقدتوارى الماضي والواجب . وانصهرت الاسوار ، وتدفقت الحياة داخلها بعنف وبساطة ولذة ..

العيون المستنكرة حولي لا تهمني . ماذا كانت النتيجة ؟ قرعها زوجها في طريق العودة قائلا : هذا لا يحتمل . هذا لا يطاق .. الذي تفعلينه خارج عن حدود المعقول ، فتنفجر باكية على حريتها ، ان ثمن الحرية سيل من الدموع، وهل في وسع المرأة العربية سوى البكاء على حريتها ؟ ماذا عليها أن تفعل اذا كان زوجها لا يفهمها واذا كان المجتمع يظلمها ؟ أمامها البكاء او التمرد . وكأن الكاتبة تحاول تحذير بنات جنسها قائلة لهن : ان عاقبة الانطلاق والحرية وخيمة فعليكن الانتباه الى ما تقدمن عليه ..

وفي " قهقهة " القصة العاشرة ، تعيش مع فتاة فرض عليها خطيب لا تعرفه ، وهذه حال مألوفة فيعالمنا العربي . لكن هذا الخطيب الذي اختاره أهلها ليكون بعلا لها .. يموت .. انتظر منها أهلها وأهله أن تبكي وتصرخ وتلطموتمزق وجهها وقميص نومها حزنا عليه . لكنها لم تفعل شيئا من ذلك ، اذ أنها عجزت عن أن تفعل أي شيء ، لقد عشت دائما مسلوبة .. مسلوبة الارادة .

لقد قال لها الخطيب ذات يوم أنه سيرد لها كل شيء وسيهبها حياتها ففتحت أمامها نافذة أمل .. لكن الاشياءالباهتة تكسرت فجأة في جوانحها واضمحل كل شيء وماتت ثانية .. الاغبياء ينتظرون منها دمعة .. قديما أخرسوا كل أصواتها . والآن يطلبون منها أن تبكي .. أمروها أن تنتصب أمام الناس سأنتصب كما أمروا وسأقبل العزاء أيضا .. الدموع البراقة أكرهها بقدر ما أكرههم كلهم.. تماما كما أكرهلنفسي ذلها وضعفها ، لكنها ما تلبث أن تعود فتقول :
" وفي أعماقي كانت هناك ضجة .. صراخ . قهقهات عالية.. عالية .. أحسستها قهقهة ضخمة فارغة تكبر وتكبر ..وبسرعة تريد أن تنفجر ..
وسوف تملأ هذه القهقهات العالية دنيا العرب .. وتنفجر ..

في التجربة " القصة الحادية عشر نشاهد فتاة .. أحبت وأرادت أن تبني من حبها قلعة ، وأن تجعل من الرجل المحبوب ، انسانا ، يعود الى دراسته ، انتظرت منه ان يبذل جهده ويعمل. قاومت الامواج الثائرة حولها . لكنه عجز عن التغلب على عاداته ، أخذت تشك في صدقه حاولت أن تجعل من أملها الرائع سحرا يخلق منه كلشيء . . ولكن " هل يستطيع

العصفور منازلة الصقر ؟ وهل تقف السنبلة في مواجهة الريح ؟ تسأله : أين وصلنا ؟ فيجيبها : كما أنا .. مديقيني أنني لا أستطيع .. تشعر أنه

لا يسعى للحياة ، وأنه يقضي على كل شيء ويغتال الامل ، ويسد المنافذ ، فتهمس وداعا ، وتبتعد عنه .

هذا هو الرجل أحيانا .. لا يجد حاجة لتحسين نفسه فيفضل البقاء في مكانه .. منتظرا الموت .. على عكس المرأة التي تحب .. والتي تريد من الرجل رجلها .. أن يسمو .. الى درجة الكمال .. انها تريد ان تقوده الى الجنة فيأبى .. ويفضل البقاء في مكانه ظنا منه أنه بلغ القمة .. وأنه لايستطيع الاستمرار في الصعود .. أو أنه يفضل على المرأة اذا سمح لها بأن تحبه .

وفي "الامل الذي ارادت"، القصة الثانية عشرة نصادف شابا فقد والديه معا ، وبقيت له جدته ، التي احتلت مقام الام والاب والاخت والاخ . يعود الشاب الى البيت ، يتقدم من جدته ، وبكل حب يقبل يدها ، ويجلس بجانبها . تسأله عن أحواله .. تسأله عن أحوال المزرعة والمحصول .. يحاول أن يكذب عليها للمرة الثانية .. لكنه لا يستطيع ، يبعدها عن الموضوع ، كان قد كذب عليها وأوحى اليها أنه اشترى مزرعة ، انه لا يريد أن يفتضح أمره .. لكنها تعود الى الموضوع مرة أخرى ، فيضطر للكذب عليها من جديد قائلا أن المزرعة ممتازة

يسألها عن ألم ظهرها ، فتطلب منه أن يصف لها المزرعة ، يقول : انها كبيرة كبيرة جدا ، الاشجار بأنواعها والنخيل والماء ، انها جنة ، خذي هذا العنقود

يقول لها : هل أعد لك فراشك لتنامي ؟ فترد عليه : انتظر .. انتظر يابني .. حدثني عن المزرعة أولا ، متى تأخذني اليها ؟ فيعدها أنه سيأخذها يوما لكن يجب أن تنامي اولا الآن .. فترد عليه وهي مطمئنة : كما تشاء يا بني .. لكنني سأحلم بهذه المزرعة ..

يأخذها الى سريرها ، ثم يعود ليبحث عن لقمة يسكن بها جوعه ، الجوع ذلك الوحش الكاسر ، العدو الظالم الذي أرغمه على مجاراة جدته التي عانت من أجله كثيرا .. انه يقوم بهذا الدور المؤلم كل يوم ، كان يطرق كل باب قد يجد فيه عملا ، وبيديه المعروقتين يتناول ريالات قليلة يشتري بها لجدته الطعام والفاكهة .

وفي القصة الاخيرة ، المنطقة الوسط نقرأ عن رجل يقول لإمرأة : " أحبك " فتضطرب المرأة وتعيش في مهرجان فرح ، ثم ترى أن عليها أن تتخذ قرارا سريعا: فاما أن تبدأ رحلة السحر والمتعة ، أو أن تتجاهل هذا الجسر بينهما ، ثم يتواعد الاثنان ، ويتوادعان .

يمضي حاملا يأسه ، وتبقى هي ، رهينة الزمان نفسه والمكان ذاته ، وعصابة ثور الطاحون على عينيها تتململ منها .. فقط ..ويداها الى جانبها مشلولتان.

وتمضي الايام .. هل نسيها ؟ هل ؟ هل ؟ ، وتذوي .. تحاول الرسم .. القراءة .. الهرب .. وكلهاحلول مؤقتة ..

وكان اللقاء الثاني ، أغدق عليها

الحب ، حملها على شراع الاحلام في بحر عريض ، لكنها .. ظلت مترددة .. وجلة .. أي موقف تتخذ ؟ والى أين تمضي ؟

وتتركنا الكاتبة دون أن تنهي هذه القصة ..

نجد في هذه القصة صورة واضحة للمرأة الشرقية ، بصورة عامة ، للمرأة التي علمها المجتمع وغذاها منذ آلاف السنين .. أن الرجل ذئب يجب أن تتحاشاه وانها وحدها الضحية .. لذا فهي تعيش في فزع دائم من الرجل الذئب .. حتى لو كانت مسلحة بالعلم .. وحتى لو كانت في ظل زوج .. ولديها أولاد .. واذا صدف ان معها رجل غريب عن حسن نية فانها

ترتعش وترتجف وكأنه غول يريد أن يفترسها .

لا ريب أن القارىء الكريم استطاع أن يكون فكرة عامة عن الكتاب وموضوعاته ففي القصتين الاولى والثانية تحدثت الكاتبة " لطيفة ابر هيم السالم" عن غربة الرجل بين أهله هول الصدمة التي يحس بها عندما يصطدم بمرور الايام ويتقدمها في السن لأنها منهمكة بخدمة اولادها وزوجها ، ونرى البون الشاسع بين المرأة الرقيقة الحساسة والزوج القاسي الذي لا يحس بوجودها ، ونصادف المرأة المخلصة التي تحب الرجل بكل صدق بينما ينظر اليها الرجل على أنها متاع يستطيع أن يستبدلها متى شاء ، ونعرف أيضا مأساة المرأة المطلقة التي تحب بكل كيانها لكنها تكتشف ان الرجل الذي أحبته لا يستحق العناء ،ونلتقي بالفتاة التي تحب رغم كل الظروف ورغم

تحذيرات صديقاتها ثم تكتشف ان الرجل الذي أحبته جبان فتهرب منه ، ثم نلتقي بالمرأة التي يطلقها زوجها بكل بساطة ويرسلها الى الجحيم مع أولادها الثلاثة ، فلا هو يرحمها ولا هو يرحم أولادها الثلاثة ، ونتعرف الى تلك الفتاة الشابة المنكودة التي تخطب دون أن تعرف الخطيب وتشاء الظروف ان يموت الخطيب ، فيطلب اليها أن تحزن وأن تمزق الوجه والثياب ولو تمثيلا .. أمام الناس .. وكذلك نجد امرأة تحب ، وتريد ان تدير حبيبها الى الاحسن .. الا أنه خامل لا يريد أن يسمو، فتحتقره .. ونرى نماذج أخرى كثيرة .

القصص التي قرأتها في هذه المجموعة ممتازة كلها .. لكن قصة "الامل الذي ارادت" بقيت عالقة في ذهني أكثر من غيرها ، ولا أعرف السبب في ذلك .. ربما لأنها بلغت درجة الكمال .. انها انسانية فعلا . وكذلك الامر مع "الزحف الابيض" وو "الوهم" و "الميت الذي ضاع" .

والحقيقة ان الكتاب بقصصه الثلاث عشرة كتاب يعطي فكرة عامة عن وضع المرأة وموقف الرجل منها ، وثمة ملاحظات أحب أن أبديها بشكل سريع قبل أن أختم هذه الدراسة وهي :

- الموضوعات واقعية كلها .
- غلبة المرارة واليأس . والتململ المؤدب .
- لم تتطرق الكاتبة لموضوعات أوسع من البيت والحياة الزوجية والعلاقة بين الرجل والمرأة والاولاد ولم تتحدث عن الاثار التي يمكن ان تصيب المجتمع الواسع ..
- لا ريب ان المؤلفة أرادت أن تتخصص بالموضوعات التي كتبت عنها .
- هناك بعض الهنات الاملائية واللغوية التي مرت على المؤلفة دون أن تنتبه اليها مثل : استخدام الفعل " وصل " من غير حرف الجر " الى " وقولها :

(كنت أنتظر أن تفاجأني - ص ٧٥) والاصوب ان تكتب الهمزة على نبرة (تفاجئني ، لأنها متوسطة مفتوحة وقبلها مكسور) ، وقولها :(عجزت أن تطال الضوء - ص ٧٩) ولا اعتقد ان مضارع " طال " هو يطال .

ألم يكن في امكان المؤلفة استخدام فعل آخر ،غير " طال " يعطي المعنى الذي تريده ؟ ومثل قولها : (أدركت الآن .. أن يديها عاجزتين - ص ٩٥) بدلا من (عاجزتان) يضاف الى ذلك أنها استخدمت كلمة (انسانة) بالتأنيث عدة مرات مع أن هذه الكلمة لا تؤنث ...

هذه الملاحظات اللغوية والاملائية لا تحط من قيمة موضوعات الكتاب . فالكتاب ناجح جدا وقد أدى الغرض من تأليفه .. وأثار العديد من المناقشات في المملكة العربية السعودية . وأتوقع أن يثير كثيرا من الجدل في الاقطار العربية الاخرى .

ولا يسعني في ختام هذه الدراسة المتواضعة الا ان احيي المؤلفة ونادي القصة السعودي على جهودهما واطالبهما بالمزيد من العطاء والانتاج .

الأدب الشعبي عند ابن خلدون

بقلم د. عبد الحميد يونس

اشتهر المفكر العربي عبد الرحمن بن خلدون في الشرق والغرب على السواء ، بانه صاحب مذهب في تفسير التاريخ ، يقيمه على تحقيق الاخبار ، واخضاعها لقانون العلة والمعلول ، ويوازن بينها على اساس التشابه والتباين تمييزا للمعقول من غير المعقول، وقلما يذكر ابن خلدون بصفة اخرى غير هذه الصفة ، وغير انه واضع علم الاجتماع الانساني او العمران البشري ، وهو يسلك مع الفلاسفة ، ولا يسلك مع الادباء ، مع ان له شعرا تقليديا نظمه في مناسبات مختلفة ، تأكيدا لعلاقات شتى ، وطلبا لمصالح معينة ، وله رسائل ومكاتبات بذل فيها ما كان يبذله أدباء القرن الثامن الهجري من الاناقة في صياغة العبارة والاحتفال بالبديع .. ولكننا مع هذا كله . نحاول في هذا المقال ، ان نجلو نظرته الى اللغة ، باعتبارها وسيلة التفنن الادبي ،. وطرائق في المكابدة ، وحكمه على الادب ، وملاحظته لفن القول في اطار نظريته العامة في العمران البشري

وليس من غرضنا ان نمهد للموضوع بالحديث عن ابن خلدون الرجل . محللين شخصيته الفذة ، وحسبنا ان نؤكد خصيصة بارزة في سيرته وسلوكه وحكمه على الاحداث والظواهر .. وهذه الخصيصة يمكننا ان نلخصها بالاتجاه الواقعي وليس من شك في ان الرجل كان ابن بيئته وعصره ، ونحن نعلم انه من اسرة اندلسية ، اشتغل افراد منها بالعلم والسياسة ، وانها ترجع نسبها الى قبيلة " كندة "من عرب الجنوب ، وان هذه الحقيقة ، حفزت ابن خلدون الى الطموح في الاطار نفسه .. اطار السياسة و العلم ، ونحن نعلم كذلك ، ان العرب اكرهوا وقتذاك الهبوط من فردوسهم في الجنوب الغربي من اوروبا ، وان شمال افريقية كانت تتوزعه دويلات ينوش بعضها بعضا ، ويكيد بعضها لبعض ، وان مصر والشام كانتا في قبضة المماليك، يغير عليهما التتار ، فاستطاع عبد الرحمن ان يحقق طموحه من خلال هذا الصراع الذي فرض عليه المغامرة ، والتنقل بموهبته

وقدرته وعلمه في انحاء الوطن العربي الكبير ، يتقرب الى دولة ، ثم ينصرف عنها الى دولة اخرى ، واضطرته هذه الظروف كلها الى ان يبالغ في الولاء لدولة او قبيلة ، كما ارغمته على ما يشبه الاعتزال سنوات ، يفرغ فيها الى نفسه من ناحية ، والى تسجيل ملاحظته على المجتمعات والاحداث من ناحية اخرى .

وكان في هذا كله ، واقعيا مع نفسه ، يحتكم الى العقل اكثرمما يحتكم الى العاطفة ، ويفيد من الملاحظة الشخصية ، افادته من مراجعة التراث القديم .

الادب الشعبي عند ابن‌خلدون :

عن كثب ، ومن داخل الكيان الاجتماعي نفسه ، التفاعل المستمر بين البداوة والحضارة ، ولم يقم حكمه على مجرد التباين بين هاتين المرحلتين ، وانما على الملاحظة الشخصية المباشرة المستمرة .

واذا كان قد اتيح له ان يتنقل بين مختلف العواصم والمدن في الوطن العربي كله تقريبا ، فقد كان من عمله السياسي احيانا ان يتصل بامراء البدو ، وان يستعين بهم على قضاء مآرب له ، او لمن يخدمه من السلاطين ، بل رأيناه يخالطهم ويعاشرهم فترات غيرقصار (1) . وافاد من هذه الفترات في الكشف عن اهم حافز يدفع الى الاحداث ، ويكاد يحدد سياقها ، وهي " العصبية " التي تجعل لكل قبيلة وجدانها الخاص، والتي تحدد جميع المواقف والعلاقات بين القبائل من ناحية ، وبين الدول الحاكمة ذوات الاصل القبلي من ناحية ثانية ، وبين أولئك وهؤلاء من ناحية ثالثة

ولقد افاد ابن‌خلدون من ملاحظته الدقيقة في التعرف الى القبائل والجماعات على اساس لهجاتها ، واعانه ذلك على ان يستشف ما بين هذه اللهجات من وجوه التشابه والاختلاف ، ليستنتج من هذا كله التوزيع الجغرافي للاعراب على الوطن العربي بصفة عامة ، وعلى شمال افريقية بصفة خاصة ، ويتبين الاصول القبلية التي نجمت منها الاسر الكبيرة ، والبيوت القبلية التي نجمت منها الاسر الكبيرة ، والبيوتات المشهورة ، وبعض الدول الحاكمة .

اللغة ملكة صناعية :

ويذهب ابن خلدون الى رأي في اللغة ، وهي أهم حقيقة انسانية ، يوافقه عليه بعض الباحثين في أيامنا ، ونحن نعرض هذا الرأي لسببين : اولهما علاقة اللغة بالوجدان الجمعي ، قبليا كان او قوميا ، وثانيهما ان الحكم على الادب لا يمكن ان ينفصل عن وسيلته الاساسية في التعبير، وهي اللغة .

قال ابن خلدون :

" .. ان اللغات كلها ملكات شبيهة بالصفات اذ هي ملكات في اللسان للعبارة عن المعاني وجودتها وتصورها بحسب اتمام الملكة او نقصانها ، وليس ذلك بالنظر الى المفردات وانما هو بالنظر الى التراكيب ، فاذا حصلت الملكة التامة في تركيب الالفاظ المفردة للتعبير بها عن المعاني المقصودة ، ومراعاة التآليف التي يطبق الكلام على مقتضى الحال ، بلغ المتكلم حينئذ الغاية من افادة مقصودة

للسامع ، وهذا هو معنى البلاغة ، والملكات لا تحصل الا بتكرار الافعال ، لان الفعل يقع اولا وتعود منه للذات صفة ، ثم تتكرر فتكون حالا ، ومعنى الحال انها صفة غير راسخة ، ثم يزيد التكرار فتكون ملكة ، اي صفة راسخة "(٢) .

والمعنى المستفاد من هذا القول ، ان ابن خلدون لاحظ التفاعل اللغوي من الاطار الاجتماعي الى الفرد ، ولاحظ ايضا ان تعلم اللغة انما يقوم على العبارة المركبة ، لا على اللفظ المنفصل غير المفيد ، او الحرف الذي يشير الى جرس واحد لا دلالة له في ذاته على الاطلاق ، وحل ابن خلدون بهذا الرأي مشكلة الاطفال ينشأون فيغير بيئاتهم الاولى . ويكتسبون لغة غير لغة آبائهم ، وكان واقعيا في نظرته الى اللغة فاحتفل بالواقع اللغوي عند الاعراب والمتحضرين الدخلاء ، وفرق بين اللهجة الفصيحة المشتركة وبين اللهجات الاخرى المنتشرة في الحواضر والبوادي بهذه .

وكما اصل نظريته في العمران البشري على العصبية والوجدان الجمعي ، كذلك اقام نظريته اللغوية على قانون نفسه ، وهو التفرغ عن اصل .. وزاوج بين حقيقتين : اولاهما ، تبين مدى اكتساب الملكة اللغوية من حيث الاندماج او القرب او البعد عن الاطار الاجتماعي ، وثانيهما مدى الاصالة في اللغة من حيث القرب او البعد من الاصل الاول الذي تشعبت عنه اللهجة ، وعلى هذا الاساس استطاع ان يفرق بين لهجة الاصل ولهجة الدخيل من ناحية ، بين لهجة البدوي ، ولهجة الحضري من ناحية اخرى .

واذا كان ابن خلدون يفسر القول الشائع " ان اللغة للعرب بالطبع اي بالملكة الاولى التي اخذت عنهم ولم يأخذوها عن غيرهم انه يرى ان اللغة بصفة عامة ، هي الجماعة تحكي اصالتهم او هجنتهم ، كما تحكي انعزالهم اواتصالهم بغيرهم ، وهي تنتشر بانتشارهم ، وتستوعب ثقافتهم وتحمل في ذاتها ما يحملون من حركة مستمرة نامية وهكذا فرق ابن خلدون ، فيما يتصل باللسان العربي ، بين لغة الاعراب في البوادي ، ولغة المستقرين في الحواضر ، وكان تفريقه واقعيا - كما قلنا - يعتمد على الملاحظة والمعاشرة ، لا على النقل والقياس المنطقي .

ويرى ابن خلدون ، تطبيقا لهذا النظر ، ان لغة العرب لعهده قائمة برأسها ، مستقلة عن لغة مضر ، اي عرب الشمال ، ولغة حمير ، اي عرب الجنوب ، ويراها أقرب الى اللسان المضري ، وان كانت قد استغنت عن حركات الاعراب وذلك انانجدها في بيان المقاصد والوفاء بالدلالة على سنن اللسان المضري ، ولم يفقد منها الا دلالة الحركات على تعيين الفاعل من المفعول فاعتاضوا منها بالتقديم والتأخير ، وبقرائن تدل على خصوصيات المقاصد .

ويستكمل مذهبه اللغوي بأن للامصار لغات - اي لهجات - تختلف فيمابينها بمقدار اختلاطها بالاجناس الاخرى غير العربية ، وهذه اللهجات بدورها مستقلة برأسها ، ومستغنية هي الاخرى عن الاعراب ، ولكنها ابعد عن الاصل العربي المضري او الحميري ، بل هي أبعد من حيث الاصالة عن لهجات البدو المحتفظين بشخصياتهم

الضاربين في الصحراء .. ويستخلص ابن خلدون من هذا النظر الواقعي رأيا آخر يفصل بين البلاغة من ناحية ، وبين قواعد الاعراب التقليدية من ناحية اخرى .

البلاغة حظ مشترك :

وكان ابن خلدون منطقيا مع نظره الواقعي ، ومزاجه العملي فأدرك ان الاستعداد للتعبير الادبي ، انما يذكي بالاتصال المستمر بروائع الادب وشواهده . ثم بالمكابدة المتصلة للانشاء ولقد كان بارعا غاية البراعة عندما فرق بين المتخصصين في النحو ، وبين البلغاء ، فالاولون يعرفون القواعد ، ويوردون الشواهد على اساس نظري فحسب ، اما الاخرون ، فيكتسبون الملكة بالاتصال والمكابدة وهو يقول ان النحاة " كمن يعرف صناعة من الصناعات علما ، ولايحكمها عملا " ، اما المبرزون في التعبير فهم الذين يكثرون الحفظ من كلام العرب حتى يرتسم في خيالهم الذي نسجوا عليه تراكيبهم .

وانصافا للرجل نقول : انه بهذه النظرية اللغوية كان يضع الاساس الصحيح لتعليم الفصيح ، ويبين مدى القرب والبعد من ناحيتي الفطرة والاستعداد من هذا الاصل الفصيح .

ونظر ابن خلدون الى البلاغة فوجدها حظا مشتركا بين اصحاب القرائح المعبرة في جميع البيئات المتعلمة وغير المتعلمة ، الاخذة باللهجة الفصحى ، والاخذة بلهجات البدو او العوام .. وهو يقترب في هذا الرأي من بعض علماء النفس المحدثين الذين يذهبون الى ان العبقرية انما يخصصها الاطار الثقافي ، فهو الذي يحولها الى ضرب معين من الفن او العمل ، وهكذا تنجم العبقرية الادبية عند البدو والعوام ، كما تنجم بين المتعلمين المتوسلين باللهجة الفصحى ، وهو يقول :

" .. الاعراب لا مدخل له في البلاغة ، انما البلاغة مطابقة للكلام للمقصود ، ولمقتضى الحال من الوجود فيه ، سواء كان الرفع دالا على الفاعل ، والنصب دالا على المفعول ، او بالعكس وانما يدل على ذلك قرائن الكلام كما هو لغتهم هذه (اي لغة البدو والعوام) فالدلالة بحسب ما يصطلح اليه اهل الملكة ، فاذا عرف اصطلاح في ملكة واشتهر ، صحت الدلالة ، واذا طابقت تلك الدلالة المقصود ومقتضى الحال ، صحت البلاغة ، ولا عبرة بقوانين النحاة من ذلك .."(٤) .

وهكذا نجد ابن خلدون يتوسع في التراث الادبي ويضم اليه ما يصدر عن القرائح المعبرة عند الاعراب والعوام ، وهو بذلك يخالف النظر التقليدي الى الادب الرسمي ، ولكنه في الوقت نفسه يجعل الادب درجات على اساس الفصاحة العربية ، او بتعبير اخر ، على اساس الاصالة في العروبة ويقيم تمييزه ايضا على مقدار الاندماج او القرب او البعد من اللسان المضري الفصيح ، ولايخفى اعجابه بما يصدر عن اللهجات من أدب . فالفصيح هو النموذج والمثال وهو الاصيل ، والبدوي يأتي من الترتيب بعده ، وادب العوام في الامصار اقل رتبة من الثاني ، وهكذا ، واذا كان قد فرق في الاخلاق بين البدو والحضر ، وجعل الاولين اقوى شكيمة ، وادخل في الفضيلة ، فانه يؤثر شعرهم وقصصهم ، ويتحدث عنهم في تاريخه

لما يورد شواهد من ملاحمهم في مقدمته .

وشبيه بهذا القول ما ذهب اليه ابن الاثير صاحب المثل السائر " وهو من أئمة البلاغيين المتخصصين ، فقد رأى الفصل بين البلاغة وقواعد الاعراب المعروفة ، اذ قال :

" الجهل بالنحو لا يقدح في فصاحة ولا بلاغة ، والدليل على ذلك ان الشاعر لم ينظم شعره ، وغرضه منه رفع الفاعل ، ونصب المفعول ، او ما جرى مجراهما ، وانما غرضه ايراد المعنى الحسن في اللفظ الحسن ، المتصفين بصفة الفصاحة والبلاغة ، ولهذا لم يكن اللحن قادحا في حسن الكلام ، لانه ما قيل جاء زيد راكب ، ان لم يكن حسنا الا بان قال : جاء راكبا بالنصب لكان النحو شرطا في حسن الكلام ، وليس كذلك ، فتبين بهذا انه ليس العرض من نظم الشعر اقامة اعراب كلماته ، وانما الغرض امر وراء ذلك وهكذا يجري الحكم في الخطب والرسائل من الكلام المنثور " (٥)

ويخطىء من يظن ان ابن خلدون او ابن الاثير كانا يجيزان اللحن في الكلام العربي الفصيح ، أو انهما كانا يفضلان الادب الملحون على الادب الفصيح ، ولكنهما في الواقع ارادا ان يضعا خطا فاصلا بين وظيفة النحو بقواعده التقليدية ، ووظيفة البلاغة التي تحتكم الى الذوق فحسب ، ولقد رأى كل منهما ان التراث الادبي العربي اوسع مدى من تراث الفصيح وحده ، وانه ينتظم الى ذلك كلاما حسنا يصدر عن بيئات الاعراب والعوام ، ويخضع لقواعد لسانهم في الكلام ، وضوابط لهجاتهم في التفنن ، ويحتكم فيه الى ذوق كل بيئة على حدة ، والتقت انظار ابن خلدون اللغوية والبلاغية والادبية في الاستعداد الفطري والملكة المكتسبة بالتكرار المتواصل عن طريق الاطار الاجتماعي والثقافي الخاص ، وحلت بذلك مشكلة الاعاجم الذين عاشوا في الوطن العربي ، وتحدثوا بلهجات العرب ، واتيح لهم أن يستمدوا ثقافتهم من التراث العربي الاصيل ، فنبغ منهم من نبغ في الشعر والكتابة ، وعلوم اللغة والبيان ، وحلت بذلك ايضا مشكلة تلك الاثار الادبية المرددة على السنة الاعراب في البادية ، والعوام في الامصار ، يتناقلونها بالروايات الشفوية ، ويحفظها كل جيل للجيل الذي يأتي بعده .

ومواقف ابن خلدون في هذا الباب ، كموقف الدارسين اليوم ، فهم لا يستطيعون ان يزعموا انهم يغلبون اللهجات المحلية او الطبقية على اللهجة الفصحى المشتركة بين جميع الاقاليم ، وجميع الاجيال في الوطن العربي الكبير ، وكل ما يزعمونه انه قد صدر عن تلك اللهجات ادب استجاده اصحابه ، وقام بوظائفه الحيوية في التعبير عن الوجدان الجمعي ، والترفيه عن الفرد ، والاحتفاظ بالتراث .

وليس من شك في ان التطور اللغوي من ناحية الواقع يختلف عما حدث لاوروبا في فترة القوميات ، لان اللغات الاوروبية كانت تختلف في كثير من الاحيان اختلاف نوع لا اختلاف درجة ، اما اللهجات العربية فالاختلاف بينها لا يعدو ان يكون اختلافا في المخارج وبعض الالفاظ والدلالات .

واذا كان ابن خلدون قد عاش في القرن الرابع عشر الميلادي اي بعد عصر النهضة الاوروبية وابان

فورة القوميات ، فان عصر ملوك الطوائف ، وتنازع الامراء في العالم العربي ، لم يغير شيئا من الواقع اللغوي ، ولذلك رأينا ابن خلدون نفسه يجعل لغة مضر هي المثال ، ويحكم على سائر اللغات من حيث الرقي او السلامة بالقياس اليها .

الادب عند ابن خلدون :

ان عصره لم يكن يعرف التخصص كما نعرفه اليوم ، ولكنه لم يجعل الادب في مكان الصدارة من نشاطه كالسياسة والعلم ، وهذه النصوص التي نجدها تقترب من الادب في كتبه وفي رسائله ، لا تدل على اخذه بالجانب العملي الذي يقوم على مجرد الاجادة في الكتابة والترسل بتقاليد عصره المتأنق.

اما شعره ، فقد سبق ان ذكرنا ، انه اتخذه وسيلة عملية خالصة تقربه من الامراء والعلماء والادباء ، وتجعله ـ وهو الطموح ـ في مكان الصدارة من المشتغلين بالشؤون العامة ، كما انه نظم بعض القصائد في مناسبات دينية واجتماعية ، فيها الاتجاهات والصور التقليدية ، وتتفيأ دائما غرضا عاما ، ووعظا دينيا واخلاقيا ، وعباراتها ومضامينها تنسج على منوال القوالب الشائعة ، وتتكىء على التقاليد المرعبة ، وتقتبس في التراكيب والصور ، ما تستطيع ان تقتبسه من شعر الاقدمين ، ومن اليسير على كل باحث ان يتبين اعتماده على المحفوظ من ناحية ، وان يميط اللثام عن النماذج المعروفة التي حاكاها من ناحية اخرى.

ومهما يكن من شيء ، فان العصر الذي عاش فيه ابن خلدون ، وهو العصر الذي ازدحمت فيه الاحداث في داخل الوطن العربي وخارجه ، اذكى الوجدان القومي ، فالتقت اتجاهات الادب الفصيح ، باتجاهات الادب الذي صدر عن لهجات الاعراب والعوام ، فاختفت شخصية الفرد ، وبرزت شخصية الجماعة كانت دولة او قبيلة او امة واصبح المضمون نموذجيا يجسم المثال الذي ينبغي ان يصعد اليه كل فرد في مجتمعه من حيث العلاقة او السلوك او القول . وكما نتوقع من رجل تقلب بين المستقرين في الامصار ، وبين الضاربين في الصحراء ، ان تتشعب قريحته الادبية ، وان جاءت على هامش اهتمامه بالعلم والسياسة وهو الذي كان يرى ان الاطار الاجتماعي والثقافي هو الذي يظهر الاستعداد ، ويحدد الاتجاه ، ومع ذلك ، فان بعض الباحثين يرجح انه نظم باللهجات الاخرى ، كما نظم بالفصيح .

ويقول احد الباحثين الفرنسيين :

(.. انه ـ اي ابن خلدون ـ يورد في اخر مقدمته عددا من القصائد والاغاني باللغة العامية ما قد يكون واضعا له ، وقد ظن في بعض المرات ان هذه الاغاني مفتعلة وهي مع ذلك توجد حتى في نسخة المقدمة الخطية التي كتبت في زمن المؤلف فتجدها في مكتبة القرويين بفاس ..(٦)

وليس هناك دليل يؤكد وضعه لهذا العدد من الشعر العامي ، ولا نظن ان رجلا طموحا كابن خلدون يتشبث بمكان الصدارة في محيطه الكبير ، ويدرك حتى ان تعاطي الشعر يقدح في مكانة الرجل العام في عصره ، يذيع عن نفسه هذه الاغاني وما يشبهها ، ولو فعل

لكان حريصا ان يثبتها ، وهو الذي كان يرى محور الوجود كله ، فسجل سيرته بقلمه ، وأثبت ما رأى انه جدير به من الشعر والرسائل والاراء والمواقف .

ولعل الفيصل في هذه الناحية ، هو راية الصريح في الادب.

يقول ابن خلدون صراحة ، وهو ما يثبت اتجاهه العملي :

" هذا العلم - اي الادب - لا موضوع له ينظر في اثبات عوارضه او نفيها ، وانما المقصود منه عند اهل اللسان ثمرته ، وهي الاجادة في فني المنظوم والمنثور على اساليب العرب ومناحيهم ، فيجمعون لذلك من كلام العرب ماعساه تحصل به الملكة من شعر عالي الطبقة ، وسجع متساوفي الاجادة ، ومسائل من اللغة والنحو ، مبثوثة اثناء ذلك متفرقة ، يستقري منها الناظر في الغالب معظم قوانين العربية مع ذكر بعض من آيات العرب يفهم به ما وقع في اشعارهم (٧) منها ..

ويقول ايضا :

" .. الادب هو حفظ اشعار العرب واخبارهم والاخذ من كل علم طرف (٨) .."

لم يخرج ابن خلدون اذن عن اتجاه عصره ، وهو، اذا كان يرى ان علم الادب ، هو الحفظ وتحصيل الملكة عن طريق النصوص الادبية ذاتها ، والمعارف التي تجلوها وتفسرها ، فانه من ناحية اخرى - كما سبق ان ذكرنا - يرى ان فن الادب ، هو المكابدة - العملية في هذا الاتجاه نفسه بعد تحصيل الملكة والحفظ .

ونحن نرجح انه قد غلب نزعته العملية على كل شيء آخر ، وتوسل بالادب طلبا للمصالح وتحقيقا لمآرب فحسب ، وان اقامته بين البدو ، ربما اتاحت له ان يسجل مجموعة من النصوص ، كما سجل نصوصا اخرى من عوالم الامصار ، وقد يسهم في الابداع على طريقة اولئك وهؤلاء اثباتا للقارة ، والتحاما بالوجدان الجمعي للبيئة التي يحل فيها ، وتطرقا على اسلوب الادباء في ذلك العصر .

احتفاله بالملاحم :

والذين يدرسون النزعة الملحمية في الادب العربي يضعون ابن خلدون في مقدمة المؤرخين الذين اعجبوا بهذه النزعة وسجلوا شواهد منها تعد وثائق على جانب من الاهمية ، من الناحيتين الادبية والتاريخية .

ونحن نذكر ان ابن خلدون، الذي لاحظ عن كثب التفاعل بين البداوة والحضارة ، والذي رأى بنفسه اعقاب الهلالية في شمال افريقية فيزغبه وسليم ورياح، قد اكد بطريق غير مباشر فساد الزعم القائم على ان الشعر العربي غنائي كله ، ذلك انه بوسع في النظر الى التراث الشعري الى الامة العربية ، وضم اليه - بصفة خاصة - الشعر الذي صدر عن البدو وبين بجلاء ان " خصيصة الإستمرار" في حياة الجماعة ، لم تكن تعوز القبائل العربية ، وهي الخصيصة التي رآها بعض الباحثين المحدثين ركنا اساسيا من اركان الادب الملحمي .

وليس من المعقول ان يكون مجرد الاستقرار في وطن محدود ، هو الباعث على ظهور هذا الادب ، فالاستقرار لا يعين وحده صفة

الاستمرار في الحياة الوجدانية الجمعية . والقبائل البدوية التي تحافظ على مقوماتها وتتشبث بتراثها ، يستمر وجدانها الجمعي باقيا ، على الرغم من ظعنها وانتشارها وتفرقها الى جماعات اخرى تنمو بدوزها .

ونحن ننقل اليك هذا النص لقيمته الوظيفية في الادب الملحمي :

" .. ولهؤلاء الهلاليين في الحكاية حين دخولهم الى افريقية طرق في الخبر ، يزعمون ان الشريف ابن هاشم كان صاحب الحجاز ، ويسمونه شكر بن ابي الفتوح ، وانه اصهر الى الحسن بن سرحان في اخته الجازية ، فانكحه اياها ، وولدت عنه ولدا واسمه محمد ، وانه حدث بينهم وبين الشريف مغاضبة وفتنة ، واجمعوا الرحلة عن نجد الى افريقية ، وتحيلوا عليه في استرجاع الجازية ، فطلبته في زيارة ابويها ، فأزارها اياهم وخرج بها الى حللهم ، فارتحلوا بها وكتموا رحلتها عنه ، وموهوا بيوتهم بعد بنائها ، فلم يشعر بالرحلة الى ان فارق موضع ملكه ، وصار الى حيث لا يملك امرها عليهم ففارقوه ، فرجع الى مكانه من مكة ، وبين جوانحه حبها داء دخيل ، وانها بعد ذلك كلفت به مثل كلفه بها الى ان ماتت من حبه .. (٩)

ومن العجيب ، ان الموازنة بين الاحداث التي ذكرها ابن خلدون في هذا الفصل ، على اقتضابه ، وبين ما توررده الملحمة الشعبية المشهورة في العالم العربي بأسره ، تثبت ان السياق واحد في الحالين .

ومعنى ذلك ان وظيفة الملحمة قد تجاوزت اصحابها الذين انشأوها تجسيما لوجدانهم القبلي ، الى وظيفة اوسع واشمل هي : العاطفة القومية العربية بأسرها ، وذلك لان موضوع هذه الملحمة كان مناسبا لما تتطلبه العاطفة القومية ، تأصيلا للعروبة ، وتأكيدا على الفروسية وشحذا لغرائز المقاومة والنضال ، كما ان الاحتفاظ بالسباق على هذه الصورة التفصيلية ، يدل من ناحية اخرى على سير التطور قبل ابن خلدون وبعده ، فلم يكن تطوراً انعزاليا للجماعات العربية ، وانما كان يتجه الى الوحدة القومية ، ولم تكن اللهجات يصارع بعضها بعضا . او ينفر بعضها من بعض ، وانما كانت تأخذ وتعطي ، وتتقارب ثم تلتحم .

والواقع ان سياق هذه السيرة الشعبية ، يكاد يكون واقعا في جميع الربوع ، واذا وجد خلاف فهو في التقديم والتأخير للاحداث ، والتفصيل والاجمال للوقائع ، والتحريف في بعض الاسماء .

ولقد افاد ابن خلدون من ملاحظته المباشرة ، ومن دراساته على السواء ، واستطاع بنزعته الى التعميم الفلسفي ، ان يضع امام الباحثين بعده ، وجوه التشابه بين الادب الفصيح المعبر عن الوجدان الجمعي ، وبين الادب البدوي المعبر عن هذا الوجدان ، وهو التشابه الذي يجعل ايام العرب تتواصل على مدى التاريخ ، وتحتفظ بمشخصاتها على الرغم من الانتشار في المكان ، واختلاف اللهجات ، كما انه يميط اللثام عن الاتجاه الملحمي الاصيل في الادب العربي ، ويبرز الركنين

الاساسيين ،وهما : الحرب والحب .
ولا ريب عندنا في ان الفروسية العربية ، التي كانت الفروسية الاوروبية تقليدا لها ، اقامت فلسفتها في الحياة على هذين الاساسين ، بيد ان الحب في هذه الملحمة الهلالية - كما في النص السابق - لم يكن حبا وهميا او خياليا ، وانما كان حبا فاضلا زوجيا ترتضيه الجماعة وتكبره ، ومن هنا كان ابن خلدون على حق، عندما رأى ان الحب في هذه القصة يزري بحب ليلى للمجنون ..
والنصوص الاخرى التي اوردها ابن خلدون في ختام مقدمته والتي اقتطفها من شعر هؤلاء الهلاليين ، لا تخرج هي الاخرى عن السياق المعروف الان ، مع انه سجلها بنفسه في شمال افريقيا ، اي في مواطن الهلالية المنتشرين هناك .
وعلى الرغم مما اصابها من التحريف ، وعلى الرغم من اختلافها من حيث اللهجة عما ينشده الشاعر في ريفنا وحواضرنا فانه يماثل الاحداث نفسها ، والروح ذاتها ، ولا يند عن السياق ، مع انه قد سجلها في القرن الثامن الهجري .. فاذا اضفناها الى ما سجله من الشواهد الاخرى من الشعر البدوي ، استطعنا ان ندرك ، كيف تتطور الملحمة ، وان تؤكد تواصل الحياة حتى بين البدو . والاحتفاظ بالمشخصات العربية المأثورة في شعر الحماسة وايام العرب .

الادب الشعبي والادب العامي :

وكان من الطبيعي ، ان يفيد ابن خلدون من قدرته الفائقة على على الملاحظة المباشرة للظواهر والاحداث ، وان يتسع امامه افق النظر الى التراث الادبي ، و ان يضيف ادب العوام والبدو، الى الادب الفصيح ، ليجعل منه تراث الامة العربية ، وهو يشبه الى حد كبير صنيع الذين يجمعون الادب الشعبي في ايامنا ، ولكنه لم يكن يتجه الى الجمع لذاته ، ولم يكن يقوم به وحده .. فلقد كان ينتخب مما يسمعه ويسجله بأمانة ، وينسبه الى صاحبه وبيئته ، ما استطاع الى ذلك سبيلا ، لانه انما اراد ان يورد الشواهد على الظواهر والاحداث فحسب ، واستغل علمه باللغة والادب ، وطبق هذا التلم على منتخباته باصطلحات العلماء في عصره من نحاة وصرفيين وبلاغيين وعروضيين . ولعله نقل عن غيره ايضا بعض المعارف التي ضمنها مقدمته عن ادب البدو والعوام ، وعن الموشحات والازجال .
وبعد ان تحدث عن الموشح الاندلسي ، مال الى الزجل الذي رآه قد تطور عنه فقال :
" .. ولما شاع فن التوشيح في اهل الاندلس ، تواخذ به الجمهور لسلاسته وتنميق كلامه ، وترصيانع اجوائه ، نسجت العامة من اهل الامصار على منواله ، ونظموا في طريقته بلغتهم الحضرية ، من غير ان يلتزموا فيها اعرابا ،واستحدثوه فنا سموه بالزجل ، والتزموا النظم فيه على مناحيهم الى هذا العهد ، فجاءوا فيه بمرائب ، واتسع فيه للبلاغة مجال " (١٠)
ولم يفطن ابن خلدون الى الخط الفاصل بين الادب الشعبي والادب العامي ، ولم يكن هذا التفريق معروفا في عصره ، وهو ما يقوم على الوجدان الجمعي ومايعبر عن الوجدان الفردي ، فالواقع ان اللهجة العامية ليست الفيصل في

التمييز بين الشعبي وغير الشعبي، وانما الفيصل هو وجدان الجماعة الذي يجعل المؤلف مجهولا مختفيا، لا تبين له خصوصية، والذي يجعل الاثار الادبية الشعبية مجهولة المؤلفين في الغالب، وهي ان نسبت الى مؤلف، فتحقيق مدة النسبة عسير او يكاد يكون مستحيلا

والحق ان ابن خلدون قد اورد شواهد تنسب الى الجماعة، ولا تنسب الى الافراد، ولكنه في هذه الناحية كالرواية المحقق، لا اكثر ولا اقل والحق ايضا، انه ذكر اخبارا، وامثلة لم يكن مصدقا لذاتها، بل كان يوردها في حديثه عن هذه القبيلة او تلك، ومن هنا كان من الضروري، الا تزن شواهده بموازيننا الحديثة التي لا تحكم على كل ادب يطعون بانه شعبي ولم يكن هذا الاصطلاح الجديد بطبيعة الحال معروفا عند ابن خلدون .

والحقيقة البارزة التي نستشف من الشواهد والاحكام هي " المرونة " في التطور الادبي، ومهما يكن من اراء الباحثين المحققين في نشأة الازجال حكاية الموشحات، فان ابن خلدون لم يكن يتصور الموال الفصيح عن غير الفصيح ومن المؤكد انه كان يتصور العكس، يتصور نمو العامي الملحون، او المضري من فصيح نفسه، اخذا بمبدأ الاصالة اللغوية والمثال اللغوي، كما انه كان يحاول ان يتتبع انتشار الزجل في المكان فيقص اثره من الاندلس الى بلاد المغرب، ويذكر الاعلام المبرزين فيه هنا، كما ذكر المجيدين فيه هناك، ويشغل نفسه بالتعرف الى المصطلحات الفنية لهذا الفن، والاسماء التي تطلق على فروعه، ويورد الشواهد المنتخبة من هذه الفروع .

وليس من غرضنا ان نعيد سياقه، او شواهده، او مصطلحاته، وحسبنا ان نلم بمنهجه، مع التسليم بان الخلاصة التي أثبتها في ختام مقدمته، والامثلة التي اوردها، ولا يمكن ان تعدلها في الاهمية، من الناحيتين الفنية والتاريخية - رواية اخرى .

ولن يستطيع باحث في الاداب العامية والشعبية، ان يغفل ابن خلدون الذي اعانه منحه الاجتماعي وملاحظته المباشرة، ان يسجل ما سجل من المعارف والروايات والشواهد، وهو، وان وجد في عصر الطوائف، وان تجاوزته الحياة قرونا، وان تأثرت ظروفه المتشابكة الا انه يثبت، بطريق مباشر وغير مباشر - ان التراث الادبي العربي اوسع واعظم مما كان يظن، وان فيه من الظواهر ما تغافله المؤرخون والباحثون، وان هذا الادب العربي المتسع المتنوع ينزع الى الوحدة من ناحية، ويحتفظ في مضامينه بوظائف لا تزال حياتنا القومية في حاجة اليها .

---

(١) التعريف با بن خلدون - طبعة القاهرة، ١٩٥١ ص ١٠٢ وفي مواضيع متفرقة ايضا .
(٢) ابن خلدون، المقدمة، طبعة عبد الرحمن محمد، القاهرة ص ٤٠٩
(٣) المقدمة ص ٤٠٩
(٤) المقدمة ص ٤٢٩
(٥) ابن الاثير - المثل السائر طبعة القاهرة عام ١٣١٢ ص ٨ وما بعدها .
(٦) غاستون بوتول - ابن خلدون، فلسفته الاجتماعية، ترجمة عادل زعيتر، طبعة القاهرة سنة ١٩٥٥، ص ١٢
(٧) المقدمة ص ٤٠٨
(٨) المقدمة .، ص الموضع نفسه .
(٩) ابن خلدون - العبر، ١٨/ ج٦
(١٠) المقدمة ص ٤٤١

سر القوة

قصة بقلم :
سعيد أبو الحسن

لا يستطيع ان يتذكر ذلك الشعور الذي كان يسيطر عليه في تلك الساعات الحالكة المجيدة من حياته وكيف يسترجع الانسان الصورة الحقيقية لشعور لا يمر بحياة الفرد الا نادرا ولا يعرفه الا افراد قلائل في الدنيا : شاب دون الاربعين من عمره يصدر بحقه حكم بالاعدام من مجلس " الحكماء " لاسرة تعيش بعقلية القرون الوسطى ، كان مجرما في نظرهم لانه يقول بان الناس متساوون فيما بينهم ، وان القول بتميز بعض الافراد والجماعات على بعض بالولادة اوالارث او الثروة ، قول مردود لا يقره علم ولا يقبل به قانون و لا منطق وموقفه هذا يعادل الكفر ـ لانه ينكر ان بعض الناس فضلوا على بعض ـ ولأن هذا الموقف يهدد مصالحنا ووجودنا ، ولان هذا الشخص مصر على موقفه لا يردعه عنه رداع ولانه لا يمكن اغراؤه او شراؤه ، فالسبيل الوحيد الى التخلص منه هو قتله ـ وظل الحكم سرا بين مصدريه ، وهم وحدهم يعرفون متى ينفذ وكيف ينفذ . وتسرب الخبر اليه بطريقة من الطرق ولكنه لم يبدل من طريقة سلوكه وتصرفاته ، بل كل ما فعله هو بعض الحذر والاحتياط لانه لا يجوز ان تذهب الحياة اهمالا .

وكما تسرب الخبر اليه تسرب الى الكثيرين من رفاقه ومن المهتمين بالقضايا العامة ، ودخل الجميع في حالة ترقب وتخوف ، وكان يتنقل من قرية الى قرية حسب متطلبات عمله ويتنقل بين مكتبه ومنزله كذلك ، وها هو في احد الايام في قرية مبنية على سفح جبل ، بيوتها متدرجة بعضها فوق بعض ، وازقتها ضيقة مبلطة بالحجارة البركانية السوداء تفتح عليها ابواب البيوت بعضاداتها الحجرية الضخمة وعتباتها المماثلة .. كان المنظر رهيبا متجهما ساعة الغروب، تنسحب اشعة الشمس ، الاخيرة من الازقة فتترك وراءها هذا السواد المزرورق الذي لا يدرك جماله القاتم الا العائش وسطه ، نظرة الى الارض لكيلا يتعثر بحجر ناتىء او حفرة بين حجرين ، ويصيخ السمع الى اي صوت ينطلق في ذلك السكون الرهيب ، فجأة سمع صوتا نسويا يقول : " ادخل يا استاذ ، ادخل من الباب على يمينك، واصعد الدرج " ، انه هو المقصود بلا شك فلا احد في ذلك المكان سواه ، ودخل من الباب وصعد الدرج فاستقبلته على باب

الغرفة العلوية صبية تضيء وسط ظلام الغسق ، تفضل ادخل " قالت ، دخل غير متحرج لأنه يعرف بنات بلده اللائي يتصرفن كالرجال ، جلست قبالته ، قدمت له فنجانا من القهوة ، وراحت تحدثه وهو يرتشف قهوته على مهل : " اعرف انك في خطر ، ولكن القضية التي نناضل من اجلها تستحق كل المجازفات والتضحيات أليس كذلك ؟

- ما دامت قضيتنا ، ايتها الاخت ، صارت عقيدة متأصلة في نفوسنا ، وما دامت صارت عقيدة النساء قبل الرجال ، فلا خوف عليها ولا نضن عليها بتضحية مهما تكبر .

نحن ، ايتها الاخت ، بقايا مذابح ، .. وضحايا تهجير وتشريد ، كان ينتظر أن يدرك هؤلاء المستكبرون اننا واياهم متساوون ، في كل شيء ، فلماذا يريدون ان يحولوا مجتمعنا المجتمع سادة ، وعبيد ، واجهنا كل الكوارث والمحن معا ، وكنا لهم نحن كثرة الشعب .. الكاسرة دروعا حمتهم من الموت في اكثر الاحيان .. وبدلا من العرفان الذي كان ينتظر منهم يواجهوننا بالعقوق والظلم والانتقاص من جميع حقوقنا .. ونحن في اربعينات القرن العشرين وقد انتشر العلم في المجتمع فكيف يتصورون ان الناس يمكن ان يقبلوا بمقولاتهم ومزاعمهم القروسطية ؟ ولأنني اقول ان لون الدم كله واحد وليس هنالك دم ازرق خص به بعض الناس دون الاخرين ولأنني اقول ان الانسان بعمله وعلمه لا باصله وماله ، ولأنني تجرأت ووقفت في وجه طغيانهم الغاشم اعطوا انفسهم حق محاكمتي والحكم علي ، ولكني مؤمن بأن قضية الحق ستنتصر فلا يمكن ان تغلب قضية من جنودها سيدة مثلك تلجىء احد المناضلين وتمنحه الامن والطمأنينة ، وثقي ان هذه الدقائق التي امضيتها في هذا الملجأ الامين ستجعلني انطلق في طريق النضال الطويلة كالصاروخ لايوقفه شيء قبل بلوغ هدفه ، من يستطيع ان يدرك هذا السر ، سر هذه القوة التي تخلقها فينا نظرة المرأة الصافية العميقة المنطلقة من الروح مباشرة ؟ عندما تنساب هذه النظرة الى اعماقنا وتملأ كياننا المادي والروحي كله ، نصبح أناسا آخرين نتجدد او نتبدل ، وتتغير علاقتنا بمحيطنا كله فتطيعنا الاشياء وتخضع لارادتنا الكائنات ويصبح الواحد منا طاقة مسيطرة لا يقف في وجهها شيء ، هذه النظرة تعني المشاركة تعني التضامن ، تعني الاستعداد للتضحية تعني - باختصار - الحب النقي الخالص من اية شائبة نفعية او دنيوية .

ورحل اعضاء مجلس الحكماء عن الدنيا ، رحلوا كلهم وهو باق يقاتل افكارهم وتقاليدهم البالية ، وانتشر العلم في مجتمعه ، حلت قيم جديدة عقلانية ، محل القيم القديمة المتوارثة بلا تفكير او اختيار ، واكثر ما كان يؤلمه موقف بعض رفاقه غير الحاسم ، موقفهم بين القديم والجديد يتظاهرون بترك الاول واعتناق الثاني وتبقى تصرفاتهم تدل على انهم يعيشون في هذا العصر بأجسامهم فقط ، اما عقولهم فما زالت غارقة في حمأة التقاليد المختمرة والافكار المهترئة ..

ولكن ، ما له ولما يدور في اذهان الاخرين ، ولو كانوا رفاقه الاقربين ، لقد رأى الدرب وتزود بالطاقة فلينطلق ولا ينظر الى الوراء ، ليتحمل مسؤوليته كاملة ، ليتحملها وحده حتى الرمق الاخير .. صحيح ان هذا كلفه ويكلفه الكثير من الالام والامراض .. والحرمانات والتضحيات .. ولكنها رسالته ، ولكنه قدره..

ومرة ، خلال احدى الاصابات المرضية العنيفة التي اعتقدها الاخيرة القاضية ، عاد من احدى غيبوباته ، وطاف بنظره على الحاضرين حواليه ، المنتظرين عودة الوعي اليه فرآها بينهم ، جالسة ، متجهمة ، مترقبة ، ولم يظهر عليه انه خصها بأي انتباه فقد اكتفى بأن يشعر في اعماقه ، بأنه انقذ ، وجودها علامة زوال الخطر ، انها كغصن الزيتون في منقار حمامة نوح ، علامة انتهاء الطوفان وعودة السلام والامن الى الخليقة ..

وها هو ذا يكتب هذه القصة بعد اعوام من هذه الرؤية او الرؤيا ـ اتريدون دليلا اكبر من هذا على ان بعض الارواح تتلاقى وتتعاهد ويؤثر بعضها في بعض وجودا وعدما ، سعادة وشقاء ، صفاء وكدرا ، احد اسرار الحياة الكبرى ، وما اكثرها ..

أوصيك يا ولدي

نبيه محمود السعدي

ولدي ، هذه براعم في حديقة العقل والحياة .. فاعتن بها كي تزهر وحافظ عليها .. حتى تثمر ..

الجنازة :

لا تبك موت عزيز ، كنت تهواه
ما دمت تعلم ان الموت مثواه
ولا تعلق بشخص - حين تفقده -
تقضي حياتك مفجوعا بذكراه
واحذر لنفسك ، ان تنقاد حالمة
الى محال ، توقى من توقاه
فالعمر - يا ولدي ، قرض الى اجل
لا بد ياخذه من كان أسداه
عجبت للقوم يستبكون ميتهم
وكل حي بمينا الموت مرساه
فكل من عينه تذري مدامعها
- خلف الجنازة - يستذري ببلواه
مهما العيون جرى من دمعها صبب
ما سال دمع على ميت ، فأحياه

الحياة والموت :

ان الحياة ترى في الموت غايتها ،
تسعى اليه ، وتستهدي بلقياه
ما يلبث النهر يلقى البحر مبتعدا
عن نبعه ، ناحتا في الصخر مجراه
حتى يعود ينابيعا تجدده
فيوصل الدهر مبداه بأخراه
مسار كل نجوم الارض دائرة ،
والكائنات لها ، والدهر أشباه
وقد خلقنا نرى الدنيا بزاوية
لم يبد منها سوى نصف عرفناه
نصف مضيء ، تراه العين ، مبتدىء
من الحياة وحتى الموت مسراه

ونصفها الاخر المجهول مستتر   الا اذا العقل بالانوار أبداه
ذاك الوجود فما يفنى به أحد   ومن تحول قلنا : الموت أفناه
كالشرق أضحى غروبا عند ناظره   اذا تبدل فوق الارض مأواه
لا ضد في الكون يخلو من مقابله   في العيش نفنى ، وعمر الموت نحياه

الحياة والكون :

تدرج الحي في أدراج سلمه ،   من الجماد الى الانسان أرقاه
تسري الحياة كخيط الشمس ،تعكسها   بكل جسم من الدنيا مراياه
في كل شيء لها من حولنا صور،   جزء نراه ، وجزء قد جهلناه
والكون ينمو ، وحجم الكون متسع   يزداد حتى يوافى الكون مبغاه
والارض تحبل كالانثى لها رحم   ينمو الجنين حثيثا في حناياه
جبنا الكواكب نستجلي مجاهلها ،   ونطلب الحي في شكل رسمناه
نظل نبحث عن ماء ، وعن شجر ،   وعن شبيه لنا في الكون نلقاه
هذا الهواء من الذرات ، لم نره ،   وما رأينا سوى شيء لحظناه
فأين من عيننا حي يرافقنا   مثل الهواء فهل يوما رأيناه
تاه المرام ، وما تاهت مراكبنا   فكان منطقنا تيها لمن تاهوا

الذرة والعلم :

ما ان رأى العلم في الذرات راحته   حتى تجلت بها أدهى قضاياه
ليست بأصغر جسم صح منطلقا   فالكون كله في الذرات مخباه
فأي منطلق أدنى نلوذ به ؟   وأي مرتقب أعلا وصلناه ؟ ؟

الموت والقانون :

تقضي الطبيعة ان يحضى برفقتها   من كل جنس من الاجناس أقواه
والموت يزحف كالصياد منتقيا   - بين الخلائق - من لم ترج عقباه
فكان أفضل مصفاة لعالمنا   وكان عكر صفو الخلق لولاه
وجاء قانوننا ضدا لشارعه   لما استباح ذوو الاموال فحواه
ترى الغني بثوب العدل متشحا   مهما تمادت بسحق الحق رجلاه
ما عاد مستضعفا ، من كان ذا حسب   وبات للضعف معنى غير معناه
تبدل الحال ، فانهارت معادلة   فيها الصراع تخلى عن مزاياه
تجرد الموت من أسما وظائفه   فصار يخطئ كالعميان مرماه

المال والجهل :

لا تبخس المال قدرا - حين تذكره ... فالناس تسجد اجلالا لذكراه
يلقى الغبي قبولا في مجالسه ... اذا تربع فوق المال ساقاه
وكل فذ فقير الحال محتقر ... ان جاء يسال ذا مال عطاياه
فاحفظ لعلمك اموالا تدعمه ... تبلغ بصوتك في المعمور أقصاه
ورجح العلم ، وانهل من منابعه ... وصادق المال ما صحت نواياه
فالعلم مولى ذوي الالباب يحكمهم ... والجهل يجعل في الاموال مولاه

الماضي والحاضر :

دع كل ما ضيك للميؤوس يقراه ... وللكسول كما الاحلام يحياه
ولا تفاخر بماض ، لست فاعله ، ... ولم تجاهد كمن ضحى ، فسواه
فما لماض عجوز غير آخيلة .. ... تثنيك عن حاضر غض ، فتنساه
وابدأ مسيرك في الدنيا الى هدف ... من غير فخر ، ولا ماض ترجاه
لو أن من جد في الماضي ، وشيده ... غنى لماضيه ، لم يسعد بمبناه

الاجلال والاحترام :

ما الاحترام سوى خوف ومخشية ... من كان ذا سطوة فالناس تخشاه
والخوف في كنف المجهول معتكف ، ... تهيب بالجاهل الواني خفاياه
فلا تكن صفحة ، هانت قراءتها ... على الجليس ، فتبدي ما تمناه
وارفع لشخصك قصرا ، حوله غلف ... من الغموض ، وقلل من زعاياه
وان تكن لثري القوم هيبته ... فالمال يسعى اليه العلم والجاه
ولا تقل عن رفيع العلم محترما ... بل قل جليلا وجل الحس أسماه
فالاحترام من الحرمان منشأه ... وما استقام بغير والحرم معناه
والحرم قسر واجبار ، يرسخه ... سلطان صاحبه ، والكرم اكراه
والاحترام بنارهن بحاجتنا ... من يستطع منعها عنا ، احترمناه

الجدال والكلام :

واحبس كلامك عمن لا يقدره ، ... وعن غبي بليد ، ما توعاه ؟
ولا تخض جدلا مع خمسة طلبوا ... كسب النقاش ، وما اهتموا بجدواه
فلا رجاء مع الرواغ في جدل ، ... ان شارف الحق في أمر تخطاه
وزائغ كلما أوشكت تقنعه ... بالامر ، أنكره بطلا ، وأخفاه
وهازل قد رأى فيه مهازلة ، ... يبني من الجد فيما قلت ملهاة
وصاحب سلطة تأبى كرامته ... ان يصدر الحق عمن قد تحداه
وشرهم غرقا في البطل ذو صلف ... غشى الغرور بصيريه ، فأعماه

القريب :

أما القريب فصافح وده بيد ... وهيء الاخرى وقاء من رزاياه
بذاك تعدم شرا ، لن تواجهه ، ... ما دمت تعلم في الحالين مسراه
ان القريب لنفع ، ذاك من ضرر ... أشد قربا ، فلا تأمن لقرباه

النساء والعقل :

من يجعل العقل - مهما جد - ملتجأ ... مع النساء ، توحد فوق ملجاه
فهن ينفرن من عقل لعاطفة ، ... تحتل في الحس دنيا غير دنياه
تغري النساء بمحبوب رجولته ، ... فان يطلنه ، لم يبقين الاه
كل السجايا التي أحببن في رجل ... تضحي لهن عيوبا في سجاياه
قد حار "آدم" في ارضاء زوجته ... حتى الاله عن الفردوس نحاه
فلا تبدد لارضاء النساء هوى ، ... فما لذاك سبيل خطه الله

الزواج والمعاملة بالعقل :

وصن لزوجك ، ماصانته من شرف ... ولا تطالب بشيء لست ترعاه
وكن رفيقا ، وخاطب ودها ، فاذا ... نلت القبول ، فباشر حين ترضاه
وان تطاها ، فكن بالوطء مقتصدا ... فأسرع الحب نحو الموت أسخاه
وعامل الناس بالحسنى ، فان جنحوا الى القتال ، فسارع نحو أضراه
وحكم العقل في صحو ، وفي غضب ، ... ولا تخذ حكما في العمر الاه
فالعقل فينا عقال شد عقلته ... على النفوس لتبقى ضمن مرعاه
والعقل علم ، وغير العلم تهلكة ، ... فكل معتصم بالعلم نجاه

نبيه محمود السعدي

الهوامش :

تذري مدامعها : تسفحها - يستذري ببلواه : يلوذ ويحتفي تحتها
مبغاه : هدفه ومراده
الغلف : الاستار
الرواغ : من يحاول المراوغة في حديثه تجنبا للحق
الزائغ : الذي يميل عن الحق
ذو الصلف : الغارق في الباطل
توحد : أصبح وحيدا

* تتمة للقصيدة تخرج من اطار العام الى الخاص

الجاحظ وعلم اللغة

د. ابراهيم السامرائي

قال اهل العلم من النقدة المهرة ان الجاحظ معلم العقل والادب . وما اظن ان هذه العبارة مفصحة كل الافصاح عما يراد بالعقل والادب . ولقد تساءل مثل هذا التساؤل المستشرق المستعرب شارل بيلا في رسالة له عن « اصالة الجاحظ »(١) .

واريد ان اعقب على هذه « الاصالة » الملغزة المشكلة ، فما الأصالة ؟ ثم ما نصيب الجاحظ منها؟ لقد ولع العرب اشد الولوع بالكلم الجديد الوافد الينا في مدلولاته المعبرة عنه باحرف عربية . ومن هذا الكلم الجديد مسالة مايسمى بالفرنسية "Originalité" ومثلها في الانكليزية مع خلاف يسير في الرسم . لقد ادرك المثقفون العرب والتراجمة منهم ، معنى الكلمة والى اي شيء ترمي في كتابات الاوربيين فرنسيين وانكليز وامريكيين وغيرهم ، فماذا يثبتون لها من العربية ؟ لقد ادركوا ان هذه الكلمة الاعجمية قد جاءت من "Original" ، وهذه الاخيرة من "Origine" ، وهذا يقابل في العربية «الاصل» فذهبوا الى مادة اصل في معجمات العربية فماذا وجدوا ؟ جاء في المعجم قولهم : رجل اصيل اي له اصل . وراي اصيل : له اصل . ثم جاء : ورجل ثابت الراي عاقل . وقد اصل اصالة مثل ضخم ضخامة ، وفلان اصيل الراي وقد اصل رايه اصالة ، وانه لأصيل الراي والعقل .

(١) اصالة الجاحظ لشارل بيلا (دار الكتاب – الدار البيضاء.

هذا كل مانعرفه في كتب اللغة عن هذه المادة التي سحرت اصحابها فافرغوا فيها بل قل افرغت في اذهانهم شيئا عجبا . لقد زعموا ان الاصالة هي الابداع ثم قالوا هي الخلق – استغفر الله العظيم – وهل اخذ يشر الى هذا في اكثر مايسمى بـ « العلوم الانسانية » ؟ وانا وغيري من اساتذة الجامعة ممتحنون في هذا ، فقد يراد الينا ان نقول : ان البحث اصيل او انه «قيّم» ويريدون به ذا قيمة عالية او انه ....

ولنعد الى ابي عثمان هذا فنقول : ان الألمعية او مايشبه العبقرية – وانا اميل الى استبعاد الاصالة – قد تكون في « الحياة » واعني بها الوجود المستمر . لقد انطوت احقاب طويلة ومضى اثنا عشر قرنا وابو عثمان هذا مازال الأثير لدى طوائف كبيرة من جمهرة المتادبين والمثقفين . يقرؤه الاديب فيقبس منه افانين من خالص الادب ورفيع الفن ، وتقرؤه جمهرة اخرى من المثقفين من اهل الآراء المختلفة، فيهم المحدث والمهتم بالعقائد والنحل والطوائف . وفيهم المختصون الجدد في سائر العلوم الانسانية . ولا اشك ان المختص الجديد في عالم الحيوان واصل الى فوائد جمة وهو يقرا كتاب الحيوان . لعل الناس اخطأوا ان هم صرفوا هذا الكتاب الى الادب وحده ،وظنوا ان مادة الحيوان فيه اطار واهي لظلال

خفيف الاثر . وانا اقول : ان هذا الكتاب العظيم قد انصرف الى الحيوان وصفا لخلقه وتناولا لطبائعه وما يتصل به من فوائد كما انصرف الى الفوائد الثقافية الاخرى . وانا لا اشك ان ابا عثمان هذا ، وهو طلعة ، قد هوي العلم والثقافة، قد افاد مما ذكره الاغريق في هذا الموضوع وهو يشير الى صاحب الشعر ارسطو وغيره ولا اريد ان آخذ القارىء في هذا العالم الواسع عالم ابي عثمان فاصرفه عما اردت لنفسي ان احدثه فيه وهو « الجاحظ وعلم اللغة » .

لعل القارىء يدرك ان الجاحظ اديب متقدم طوى من القرنين الثاني والثالث الهجريين فسحة طويلة وانه حصل له من العلوم ماقد سما به على معاصريه بل قل انه اتعبهم فصاروا يلحقونه ويقلدونه ويتتبعونه فلم يشقوا له غبارا. وكان الذروة القصوى التي تفرد بها لتضيق عن سواه. هذا هو ابن قتيبة يصنف في معارف شتى، وهو ممتحن اشد الامتحان ان ياتي بشىء مما اتى به ابو عثمان . وبقي ابوعثمان قرير العين يمتلك من اسرار فنه وادبه وعلمه ما استطاع ان يتفرد به بين سائر معاصريه . ولقد اراد نفر ممن خلفوا بعد الجاحظ ان يحتلوا هذه المكانة فما افلحوا على ماقدموا من فوائد في العلم والادب . ولو قدر لك ان تعود الى « الاشارات الالهية » لابي حيان التوحيدي لشممت نفحة من عطر ابي عثمان تظهر وتخبو في عبارة ابي حيان .

اقول : ان ابا عثمان من «علماء اللغة» ولا اريد بذلك انه من طائفة الادباء الذين ينـدرج اللغويون والنحاة في « طبقاتهم »(٢) . ولكني اذهب الى انه ادرك من الاختصاص اللغوي قدرا ليس لاحد ممن سبقوه شىء منه . لم يكن لغويا معنيا باللفظ على طريقة المعجميين وان كان له ادراك خاص في اللفظ وتطوره يتاتى من نظر شامل الى المشكلة اللغوية . وليس هو لغويا على نحو جمهرة ممن انصرفوا الى تدوين المادة اللغوية الادبية في رسائل تتناول النبات والشجر والحيوان والبيئة الطبيعية .ولم يلحق بشأوه طائفة من اهل اللغة ممن خلفوا بعده .

لقد كان نمطا خاصا نظر الى اللغة نظرة تاريخية فتكلم في «الاوائل» من هذه المادة الوافرة .ولو كان شيء مما نسميه في عصرنا بـ « المعجم التاريخي » لكان لابي عثمان مشاركة فيه فقد عرض لمشكلات لغوية تتصل بالبيئة والتطور واللهجات واللحون مما يدفعك الى ان تخلص الى ان الجاحظ كان مؤرخا ناقدا لغويا كبيرا . وآية ذلك ان المادة اللغوية في كتب الجاحظ شيء غني بالحياة فهو يستقري النصوص المختلفة فيقف منها على فوائد جمة لا تلقاها في المطولات من كتب اللغة . وساخلص الى نماذج من هذا اتحقق منها ان ماذهبت اليه حقيقة وليس ادعاء مزعوما .

قلت : ان الجاحظ ليس كغيره من اللغويين وذلك لانه معلم استاذ توفر له العلم فاتقن مهنة التعليم وكيف يتجه فيها الى طالب العلم . لقد ادرك الجاحظ ان علم اللغة ينبغي ان يقوم على الاصوات والدلالة . وان المعلم الذي يملك ادواته لابد ان يتناول هذه المواد في منهج تعليمي قويم قد تقول : وكيف اتبع الجاحظ هذا المنهج في كتبه ومصنفاته، وهل صنف شيئا في هذا المنهج القويم ؟

اقول :ان في كتبه الكثيرة من هذا المنهج السليم ولكنه لايحبس الكتاب على هذه المواد بل يضيف اليها مواد اخرى هي من تمام آلة اللغوي . ثم انه يتوجه الى القارىء بعناية فيسعى اليه ويستميله بطرفة او نادرة لاتخرج كثيرا عما هو فيه .

لقد تجاوز ابو عثمان ماكان يشغل اللغويين في عصره . ومن اجل ذلك تحدث ابو عثمان في «البيان» فذهب الى ان جماع ادوات البيان معرفة لغوية دقيقة على نحو مانسميها في عصرنا هذا بـ « الاختصاص » . وهو يعرض لمخارج الاصوات وكيف ينشئها المربون ويتمطى به هذا البحث اللغوي البياني الى مايضطرب به الناطقون بالعربية وهم من أرومات غير عربية . وهو في ذلك يعرض لخصائص تلك الاجناس المتباينة التي اتخذت العربية

---

(٢) لقد ترجم ابو البركات الانباري للجاحظ في « النزهة » ص ١٣٢ ترجمة مفيدة . وابو بركات في هذه الترجمة يعد الجاحظ من اللغويين الذين يؤلفون طبقة من الادباء.

لغتها من المسلمين وغيرهم ، وبينا هو في هذا العلم الجاد عن الاصوات ومخارجها ومدارجها واحيازها اذا هو يعرض لنفر من الناس اولو البراعة في الحكاية اي ماندعوه بـ « التقليد » فيقول :

ومع هذا انا نجد الحاكية من الناس يحكي الفاظ سكان اليمن مع مخارج كلامهم ، لايغادر من ذلك شيئا . وكذلك تكون حكايته للخراسانيّ والاهوازيّ والزنجيّ والسندي والاحباش وغير ذلك . نعم حتى تجده كانه اطبع منهم ، فاذا ماحكى كلام الفافاء فكانما قد جمعته كل طُرفة في كل فافاء في الارض في لسان واحد . وتجده يحكي الاعمى بصورة ينشئها لوجهه وعينيه واعضائه، لاتكاد تجد من الف اعمى واحدا يجمع ذلك كله ، فكانه قد جمع جميع طرف حركات العميان في اعمى واحد . ولقد كان ابو دبوبة الزنجي، مولى آل زياد، يقف بباب الكرخ ، بحضرة المكارين ، فينهق ، فلا يبقى حمار مريض ولا هَرِم حسير ، ولا مُتعَب بهير الا نَهَق .... »(٣)

ويعرض ابو عثمان لعيوب اللسان التي ينبغي لصاحب البيان الا يبتلى بها . ومن هنا نجد ان العربية وحدة موصولة الحلق مترابطة الاجزاء .

ولايعدم الدارس المستقري تاريخ هذه اللغة الشريفة ان يقف في كتب الجاحظ على فوائد نفيسة تشير الى مانال هذه اللغة العامرة من نسير وهي تتجاوز الآفاق نتفرض وجودها فياقاليم غير عربية.

قال ابو عثمان :

وقد فهمنا معنى قول ابي الجهير الخراسانيّ النخاس ، حين قال له الحجاج : اتبيعُ الدواب المعيبةَ من جند السلطان ؟ قال : « شريكانا في هوازها وشريكانا في مداينها . وكما تجيء نكون ».

قال الحجّاج : ماتقول ، ويلك ! فقال بعض من قد كان اعتاد سماعَ الخطأ وكلام العلوج بالعربية حتى صار يفهم مثل ذلك : يقول : شركاؤنا بالاهواز وبالمدائن ، يبعثون الينا بهذه الدوابّ ، فنحن نبيعها على وجوهها »(٤)

قلت : لقد تجاوز الجاحظ حدود اللغويين من المعاصرين والمتقدمين فهو يعرض للاصوات العربية فيتكلم عليها وكانه يعقد موازنة بينها وبين الاصوات عند امم اخرى . وهو بهذا من اوائل من باشروا « علم اللغة المقارن »

قال : ولكل لغة حروف تدور في اكثر كلامها نحو استعمال الروم للسين ، واستعمال الجرامقة للعين . وقال الاصمعي : ليس للروم ضاد ولا للفرس ثاء ولا للسرياني ذال .(٥)

وهو يعرض لهؤلاء الامم وهم يعربون بالعربية فيضرب على ذلك امثالا عدة منها :

ومنهم سحيم عبد بني الجماس ، قال له عمر ابن الخطاب ـ رحمه الله ـ وانشد قصيدته التي يقول في اولها :

عُميرةَ وَدِّع ان تجهّزت غاديا
كفى الشيبُ والاسلامُ للمرء ناهيا

فقال له عمر: لو قدّمتَ الاسلام على الشّيب لأجزتك . فقال له : ماسعَرت . يريد ماشعَرت جعل الشين المعجمة سينا غير معجمة .(٦)

والمستقريء لتاريخ العربية في مصنفات الجاحظ يقف على فوائد مهمة منها ان العربية كانت تجاور الفارسية في الحواضر العربية كالبصرة والكوفة وبغداد . وان الفارسية معروفة في هذه الحواضر . وقد بلغ ان الشعراء يستعيرون الكلم الاعجمي لغير ضرورة مقتضاة كأن يكون الكلم مما لاتعرفه العربية او انه شيء من مصطلح مولّد . وهذا يزيد بن ربيعة بن مفرّغ الحميري من شعراء الدولة الأموية يهجو زياد بن ابيه فيقول :

---

(٣) الجاحظ : البيان والتبيين ٦٩/١-٧٠

(٤) المصدر السابق ١٦٠/١-١٦١ .

(٥) المصدر السابق ٦٤/١-٦٥

(٦) المصدر السابق ٧١/١-٧٢ وجاء في «الشعر والشعراء» لابن قتيبة ص ٢٤١ (ط اوربا) وكذلك في الخزانة ٢٥٧/٢ نقلا عن «سر صناعة الاعراب» لابن جني ان سحيما هذا كان يقول «احسنك » بدلا من «احسنت» للضمير المتصل المتكلم على مثال اللغة الحبشية .

آب اســت نبيذَ اســت
عُصـارات زبيـبَ اســتَ
سَنمنيه رُوسبيداست(٧)

لقد كان مولعا بهجاء بني زياد وتجاوز ذلك الى ابي سفيان فقذفه بالزنا ، وامر يزيد بن معاوية بطلبه حتى وقع في يد عبيدالله بن زياد فامر به فسقي نبيذا حلوا قد خلط معه الشبرم فاسهل بطنه وطيف به وهو في تلك الحال في البصرة ، وقرن بهرة وخنزيرة فجعل يسلح والصبيان يتبعونه ويصيحون « اين جيست » لما يسيل منه . أي ماهذا ؟ وهو يجيبهم بالابيات . انظر الاغانـي ٥١/١٧ ـ ٧٣ والخزانة ٢١٠/٢ ـ ٢١٦ والاشتقاق ص٣٠٩ .

وهذا يدل دلالة مفيدة على شيوع الفارسية ومجاورتها للعربية في حاضرة البصرة التي شهدت مولد علوم العربية الاولى .

والى مثل هذا اشار الجاحظ حين عرض للعربية وحالها في الكوفة الحاضرة اللغوية المشهورة قال : ويسمى اهل الكوفة الحـوك الباذروج ، والباذروج بالفارسية ، والحوك كلمة عربية .(٨) وكانه حين عرض للعربية في الكوفة ذهب الى تفضيل العربية البصرية عليها تعصبا للبصرية ، وكانه ايضا اراد ان يطوي ماعرف من شيوع الفارسية بالبصرة مما ذكره ابو الفرج وابن قتيبة وغيرهما .

وهو يقول : واهل البصرة اذا التقت اربـع طرق يسمونها مُربَّعة ، ويسميها اهل الكوفـة الجهار سوك ، والجهار سوك بالفارسية . ويسمّون السُوق والسُويقة «وازار» والوازار بالفارسية . ويسمون القثاء خيارا والخيار بالفارسية . ويسمون المجذوم ويذي بالفارسية .(٩)

ولعلك تدرك شيوع الفارسية من انها تجاوزت هذه الحواضر . يقول ابو عثمان :

وقد يتملح الاعرابيّ بان يدخل في شعره شيئا من كلام الفارسية كقول العماني للرشيد في قصيدته التي مدحه فيها :

من يلقـه مـن بطـل مُسْـرَنْد
في زَغْفـةٍ مُحكمـةٍ بالسَّـرْدِ
تجول بين راسِـهِ والكَرْدِ

يعني العنق . وفيها يقول ايضا :

لما هوَى بـين غيـاض الأسْـدِ
وصـار في كفّ الهِزَبْر الوَرْدِ
آلى يذوق الدهـر آبِ سَرْدِ

ومثل هذا موجود في شعر ابي العذافر الكندي وغيره .(١٠) وابو العذافر هذا ممن ذكره المرزباني مع من غلبت كنيته على اسمه من الشعراء المجهولين والاعراب المغمورين .

ويخلص الجاحظ الى ان اية لغة في مجاورتها والتقائها بلغة اخرى لابد ان يحصل من هـذا التقاء شيء قد يحمل الضيم على كليهما . والى هذا اشار حين عرض للغة اهل المدينة فقال :

الاترى ان اهل المدينة لما نزَل فيهم نـاس من الفرس في قديم الدهر علَقِوا بالفاظ من الفاظهم ولذلك يسمّونالبطيخ الخِـربِز ، ويسمّون السَّميط الرَّزْدَق ، ويسمّون المَصُوص المِزّور ، ويسمّون الشطرنجالاشترنج، وفي غير ذلك من الاسماء . وكذلك اهل الكوفة فانهـم يسمون المسحاة بال ، وبال بالفارسية (١١)

وقد تحس ان ابا عثمان بصريّ محب لحاضرته متعصب لها فلا يعرض لها الا مادحا مكبرا حين يجدّ معرض للموازنة والمقارنة . وهذا يبدو في كلامه على لغة اهل مكة . قال :

حدثني ابو سعيد عبدالكريم بن روح قال : قال اهل مكة لمحمد بن المناذر الشاعر : ليسْت لكم معاشر اهل البصرة لغة فصيحة ، انما الفصاحة لنا اهل مكة . فقال ابن المناذر : اما الفاظنـا فاحكى

(٧) المصدر السابق ١٤٢/١
(٨) المصدر السابق ٢٠/١
(٩) المصدر السابق .
(١٠) المصدر السابق ١٤٢/١
(١١) المصدر السابق ١٩/١

الالفاظ للقرآن ، واكثرها له موافقة ، فخسعوا القرآن بعد هذا حيث شئتم . انتم تسمون القدْر بُرمة وتجمعون البرمة على بِرام ، ونحن نقول «قِدْر» ونجمعها على قدور ، وقال الله عز وجل « وجفان كالجوابي وقدور راسيات » . وانتم تسمون البيت اذا كان فوق البيت عُلّيّة ، وتجمعون هذا الاسم على علالي ، ونحن نسميه غرفة ونجمعها غرفات وغرف . وقال الله تبارك وتعالى : غرف من فوقها غرف مبنيّة » وانتم تسمون الطلع الكافور والاغريض ونحن نسميه الطلع ، وقال الله تبارك وتعالى « ونخل طلعها هضيم » (١٢)

ولعل الجاحظ قد فطن اكثر من غيره الى مشكلة اللحن ووضعها في مكانها التاريخي . وكانه اراد ان يقول ان هذا اللحن ضربة لازب ماكان للعربية ان تنجو من غائلته، فهو في كلام علية القوم فقد وجدوه في كلام الامام مالك والحسن البصري وغيرهما من خاصة الخاصة فضلا عن العامة . وانت تستطيع ان تلم بفوائد بسطت على نحو واف في « البيان والتبيين » بحيث تستطيع ان تفيد كثيرا مما يتصل بحال العربية التاريخية منذ القرن الاول الهجري .

لقد اشار الى اللحن في كلام الاعراب وهم الذين كانت تؤخذ منهم العربية فقال :

ثم ان اقبح اللحن لحن التقعير والتقعيب والتشديق والتمطيط والجهورة والتفخيم . واقبح من ذلك لحن الاعاريب النازلين على طرق السابلة وبقرب مجامع الاسواق .(١٣)

ثم ان الدارس لادب الجاحظ ليقف على طائفة من مصطلحات لغوية لعلها من اوائل ماجدّ في هذا الباب في العربية . انه يذكر مثلا في «عيوب اللسان» جملة صالحة من هذا المصطلح اللغوي الذي لم نعرفه عند اللغويين المتقدمين .

ومن هذا الفأفاة والتمتمة واللفف والحصَر والبُهر والعيّ واللجلجة والعقدة واللكنة والحكلة والنحنحة والسحلة وغيرها .

قلت في اول هذه الدراسة ان الجاحظ صاحب منهج يقوم على الاصوات والدلالات . وها انا اعود الى الدلالات في كتاب «البيان والتبيين» لاشير الى ان ابا عثمان قد خاض في جمهرة المواد اللغوية مبينا معانيها وما آلت اليه في النصوص الادبية . وقد تهيأ لي من جملة هذه المواد معجم صغير بدا فيه اثر الجاحظ ماثلا واضحا ذلك ان في تلك الشروح فوائد لعلك لاتجدها في المعجمات المطولة . ثم ان طائفة اخرى من الالفاظ والأبنية قد عرض لها الجاحظ وليس لها وجود في اي معجم من المعجمات . وهذه الطائفة الاخيرة ممانبه عليها الاستاذ عبدالسلام محمد هرون في الكتاب ، وهي مواد وردت في النصوص وقد خلت منها العربية في المعجمات نحو « بدلة» مثل « فَرِحة» او مثل « ضَحكة » في خطبة قطري بن الفجاءة في قوله في وصف الدنيا : .. اكّالة غوّالة ، بَدِلة نقالة » (١٤)

ومثل كلمة « إثِم » في قول النابغة :

احلامُ عادٍ واجسادٌ مطهرةٌ
من المَعَقّة والآفات والإثِم (١٥)

ومثل هذا الفاظ اخرى تنبه اليها الاستاذ هرون . ومن المفيد ان اشير الى ان ابا عثمان من اكثر المتقدمين استخداما للكلمات الاعجمية . وقد لاحظت ان المعنيين بالدخيل لم ينصوا على هذه الالفاظ التي استعملها الجاحظ فهي وحدها تؤلف كتابا خاصا . ان الكثير منها لم يرد في كتب المعرّب والدخيل . وكان ابا عثمان قد اباح لنفسه ان يستعير من هذا الكلم قدرا كبيرا يؤلف معجما براسه هو معجم الدخيل معربا كان ام غير معرب . وهذا يعني انه لم ياخذ بما يشبه القواعد التي وضعت للتعريب ، وهي كون اللفظ على بنية عربية او قريبا من بنية عربية ثم انه يخلو من الاصوات التي لاتعرف في الالفباء

---

(١٢) المصدر السابق .
(١٣) المصدر السابق ١/١٦٦
(١٤) المصدر السابق ٢/١٢٦
(١٥) المصدر السابق ٢/١٦٥

العربية ، فان وجد شيء من ذلك صير الى قريب منه من الاصوات العربية .

اقول : لم يهتم ابو عثمان بهذه الضوابط بل اباح لنفسه ان يأخذ ماتقتضي اليه الحاجة وهو يكتب في « البخلاء » و « الحيوان » او اي مصنف آخر لقد اكثر من هذا الكلم الدخيل في « البخلاء » مما يتصل بأصناف الاطعمة والاشربة ومما هو خاص بالحياة البصرية وبيئتها البحرية والبرية . فانت تجد من ذلك شيئا من الفاظ النخل والنبات والزرع وما تقتضيه هذه المواد من ادوات وآلات . ثم انك تجد كلما كثيرا يتصل بالسمك والحيوان البحري. وكل هذا لانعرفه الا في الادب الجاحظي .

ولا بد ان اعطف الطرف نحو «الحيوان» فماذا اقول ؟

ان هذا الكتاب من المصنفات المطولة التي اصطلح عليها في عصرنا بـ «الموسوعات» او «دوائر المعارف» او ما يشبه هذا من المصنفات «المعجمية»

قلت : ليس مادة الحيوان في هذا الكتاب ظلا باهتا او إطارا لمواد اخرى هي غاية المؤلف من الكتاب ، ذلك ان مادة الحيوان جوهرية شأنها كغيرها من المواد الاخرى .

ان هذا الكتاب ليقدم للباحث في تاريخ المعجم العربي مادة مفيدة، ذلك ان الجاحظ قد اوعب كتابه هذا ثروة لغوية نفيسة . وكأنه اراد ان يقول للغويين « ان ماعندكم عندي وليس ماعندي عندكم » . ان الكلم الثري في هذا المعجم المطول غيره في المعجمات المطولة المعروفة فالجاحظ يعرض للكلمة فيمضي في تاريخها وتطورها وما آلت اليه في الاستعمال فان عرض شيء يتصل بأسطورة او حكاية او طرفة ذكره . كل ذلك مفيد لدارس اللغة ليهتدي منه الى شرح « حياة اللفظة » وكيف تدب فيها الحياة او تنكمش فتموت وتندثر .

ومن عجب انك تقرأ في ادب الجاحظ انه معنى بالفصاحة والبيان ولكنك تجده في الوقت نفسه معنيا بلغة العامة وادبهم وصفات العامية وانه يبيح لنفسه ان يعرض لنمط من ادبهم والفاظهم . ومن هنا كانت كتب الجاحظ مادة اساسية في فهم البيئة العامية وما يضطرب فيه عامة الناس سحابة يومهم ازاء ان للخاصة مكانا واضحا في هذه المصادر النفيسة .

ثم اذا عرضت لطائفة الامثال في كتابي «البيان» و «الحيوان» ادركت انه فطن الى مسائل لاتجدها في كتب الامثال المشهورة . هذه الفوائد وغيرها دفعتني الى ان اعقد هذا الفصل في ادب الجاحظ وما يستلخص منه لعلم اللغة من الناحية التاريخية.

الشعر مدينة الأحلام (٣)
والمسرح مرثاة للجنون وعصفرة للحب

محمد زهير الباشا

الشعر .. ماله .. وما عليه ..

* الشعروهج فكرة هاربة من قوالب العقل ..
ولمعة حدس منطلقة من اسار النفس وخاطرة متوثبة ترسم على ارصفة الشوارع نبضات حالمة ومدنا هائمة .. وتجد الوهج والحدس والتوثب احساسا ووجدانا في دنيا الجمال ، مفاتيحه في طيات هيمنة الاحلام على كل نفس تتذوق الحلم والفن والحرف ، وعلى القرطاس زفرات شاعر ورغبات يراع يسمو الى الارتقاء في بناء مدينته ثم تتنفس - الكلمة - لحظة استقرارها على صفحات مستقاة من رؤى الواقع والتسرب ، و تحيا الكلمة الشاعرة - في أنفاس كل صدر .. لأنها انعتاق الروح من أقفاص المادة ومن زمهريرات الغابات التي تقتنص فورة الذات يوم ان يروي البحر للامواج كيف تم اقتناص الروح على مذبح المادة وشهوة الجسد .. وتتساءل النفس على استحياء عما حدث لتلك المفاتيح التي أزهرت وتجمد ابداعها فترجو السلامة لذاتها .. وتهرول على خجل .. من شقاء المدركات في الزمن الاعسر ..

يا ليل ..

* والشعر بلفتة الزمن - الضاحك هو اكرام على ابن زيدون ان يجود عليه بلقاء من توزع قبلاتها على عاشقيها وقد دمعت ازهار الندى ، الى ان ارهف السجن احساسه فوق ما لديه من رهافة .. فاستجار ثم شفع له .. ونسيته ابنة المستكفي ، فالتجأ الى القريض يرمي اليه ويترامى على قدميه ، ولم يكن ثمة وهج بل :
ناب عن طيب لقيانا تجافينا
وخسارة ولادة مراميه ، وحذر السقوط .. طموح ربحه الشعركنزا ، وأمضه التفرد في السجن فذكا قوله وتوارى في الزهراء خشية النوائب فتهدد حياته ، وتطول لياليه ، ويغدره الزمان :

* يا ليل ..
يا ليل كل لا أشتهي
الا بوصل قصرك
يا ليل خبر : انني
ألتذ عنه خبرك
بالله قل لي ، هل وفى
فقال : (لا) بل غُدرك ..

وتجتاحه الذكريات حاملة معا مفاتن الرؤى ومباهج الكون فتهتاج النفس وتتشوق الى ما يخفف من صبواته ، فلا

محل الوداد اهله ، ولا ميدان الانس اطلقه ، فشكا الدهر والسجن والناس ٠٠ واحتفظ لنفسه بهواجس الحب ومشاعر اللحن وخلد على الايام صورة لكرامة الشاعر :

* ويفت المسك

ان قسا الدهر فللماء من الصخر انبجاس
ولئن أمسيت محبوسا فللغيث احتباس
* ويفت المسك في التراب فيوطا ويداس
ولا يكن عهدك وردا ان عهدي لك آس
وادر ذكرى كأسا ما امتطت كفك كاس
واغتنم صفو الليالي انما العيش اختلاس

وتتلاعب الاقدار وتشتد وابن زيدون يؤكد حبه ، وولادة تغدر ، وابن عبدوس ينافس ويمكر ، وتصوغ انامل ابن زيدون رسالته الهزلية يتهكم مستنكرا هاجيا ساخطا لعله ينال حظوة العاشق فترسم كلمة غزل او تقبل ولادة من جديد ان تبادله القريض وهي ابنة اخر خلفاء بني امية في الاندلس ، ولم تشفع له قصائده وأبقى صرخته حكما لكل العصور :

وبقينا نحن عشاقا ٠٠

* أدوات وملامح ٠٠

وظل الشعر ملازما ادواته الفنية ، وقد وضع الكثير منها تحت خدمة النثر دون الزام او اسر ، وحاول الهمزاني تنميق نتاجه لكنه بقي تحت اضواء النثر ، ولم يجرؤ أحد من النقاد ان يجعل مقاماته الواحدة والخمسين – قصائد نثرية – وهي بهذا الاسم احق واجدر ٠٠ لكن أدوات الشعر الفنية – تتهافت – في العصر الحديث ليقدم اصحاب – القصائد النثرية – مقطوعات أدبية هي النثر وليست بالشعر مهما بذلوا من محاورات ومواقف دفاعية وما استعانوا بملامح الفن ٠٠

والشعر لم يجنح الى ادوات النثر والا فانه شعر هابط تخلى عن اولى سماته وعلاماته وأطره الجمالية ٠٠ فالشعر فن له خصائصه وملامحه وادواته ٠٠

وللشعر اريجه وعطره ومدنه الحالمة وليس نثرات مستقاة من قماقم المحسنات ولو الفن شفافية تستعر شعرا ، وتتوغل حلما فتأسر النفس ، ولم يحدث للشعر ان انتقل الى مدارج النثر حتى يفقد مكانته ومنزلته ويخسر ادواته ٠٠ ولا تدري ماهي الادوات الفنية التي جعلت – المقطوعات الادبية – شعرا أبيض اومرسلا او سلبيا او قصيدة نثرية ٠٠ ولم يدر بخلد اصحاب هذه المقطوعات الادبية انهم تخلوا عن جوهر الشعر وحقيقة النثر ٠٠ وباتت مدنهم خاوية جافة ، لا رصيد ٠٠

ألم يحلم ابو القاسم الشابي ويحلق وهو يدعو الى التخلص من الجبن وخشية السماط ، فيخاطب الانسان :

ألا تخشى نشيد السماء الجميل
وترهب نور الفضاء في ضحاه
ألا انهض وسر في سبيل الحياة
فمن نام لم تنتظره الحياة

ومدينة الاحلام ٠٠ مدينة ابي القاسم الشابي كان شيدها على مثالية القيم وقد تطلع الى الحرية في عهد الحماية الفرنسية على الشعب القربي في تونس فخاطبه وهو يحلم بمدينة الحرية والنور معا :

فمالك ترضى بذل القيود
وتحني لمن كبلوك الجباه
وتطبق أجفانك النيرات
عن الفجر والفجر عذب ضياه

ومثالية احلامه في مدينة الشابي ربيع وورود أطياف احلام كلها نور وصفاء :

الى النور فالنور عذب جميل
الى النور فالنور روح الاله

شاعر الكون الاول ٠٠

واولى الكلمات العذبة على لسان آدم كانت لفظة شاعرة ، أو نبرة حالمة او بحة حنجرة هائمة وهي مترنة بجمل موسيقية كان يرددها فتجيب حواء بصدق اللمسات فغنت للعالم كله ٠٠ فبنى آدم مدينة أحلامه ببساطة قلبه واصغائه لما كانت تبوح به انفاس حواء ٠٠ فهو ٠٠ ولا ريب – كان اول شاعر على البسيطة ٠٠ وهي اول مصغية كان تتلقى بشغف وحنان ألف لحن ٠٠ فتعلمت الشعر ٠٠ ذلك ان حواء كانت في رؤى – آدم – قصيدة متناسقة ٠٠ ونظراته حلما متراقصا ، واحلامها تلك القوافي المنتشرة على كتفيها خصلات وجدائل ٠٠

كانت رائعة النغمات آسرة قلبه ترتقي بأعصابه فيصدح ٠٠ تناجيه فيعلمها الشعر ثم يتشرد ٠٠ يبدأ يومه بتراكيب لغوية متسقة ينشدها حتى المغيب ٠٠ وفي الليل يغرق الشعر كله في حب والوان من البهجة ٠٠ فالوجود كله ملك لهذه العواطف – على سذاجتها وطبيعتها ٠٠ فيمثل امام آدم وتعطر له اشجار اللوز وتحلو وتسمو الافكار كل يوم ٠٠ بالقول والغناء شعرا عفويا ٠٠

وامتلك ادم منذ اللحظة الاولى لشروق الشمس .. اشعة النور في يديه .. وقلبه فاعطى عبق الشعر انفاسا متدفقة مطلق من اعنتها وكان الدهر شاهدا على اغنيات الانسان الاول .. ومن المؤكد ان آدم كان اول من وضع العبارة السحرية على لسان كل عاشق (احبك) فانتشرت في ارجاء الكون .. قبلات ومواعيد واسرارا .. وما ان سمعتها حتى اصبحت قصيدة خالدة لم ينته نسجها حتى الان .

* المجد : سرج سابح

واذا ما تجمد الدهر في لحظة كان اقسى ايلاما من العتاة ، على / ريتشارد / الثالث فلم يجد الا نفسه في خضم المعركة انتصر فيها هذي بفرسان على قواد ريتشارد ومريديه واتباعه ، وفي زحمة الصدام استنكر ريتشارد وراح يلعن ويشتد غضبه فالهزيمة قاتلة ثقيلة وما اعتاد الفراد من اي معركة ومالانت عزيمته وبقي وحيدا .. امام - لحظة تجمد فيها الدهر - فاي احلام تبناها في الايام السالفة بدأت بالاضمحلال . وانهزم ركن اخر في هذه المعركة فقد اصيبت حصانه .. وانى له الدفاع عن احلامه ومدينته ، عن ذاته وعرشه ، فالاحلام تيبست امام ناظريه وجفت المآقي لكن لم يخش ضراوة الموقف ، ورد صرخته وكأنه يكتب مرثاة هزيمته بالالم المتفجع وبالزمن الغادر فنادى :

- (حراسي .. فرساني .. قوادي .. أتباعي ..)

تبقي معي .. قلبي معي .. عقلي معي .. فالنصر لي .. القلاع معي ..ولكن..اود حصانا ..

مملكتي كلها مقابل حصان واحد)

وضاعت المساومة في سوق الهزيمة .. .. وانزرع سيفه في رخام متجلد صلب ، لا ينزعه من ثلمة الصخر سوى قلب امير - وتجمد السيف في قلب هذه الصخرة .. وما هبت اي ريح تسعفه ليسمع عناق الخيل قادمة نصرة واستنجادا ..

اخنى الدهر على ريتشارد وسدت عليه منافذ الحياة وافتقد مدينة احلامه لحظة ان خسر حصانه .. وسيفه .. واتباعه ..

وبمثل هذه الخيبة قول بول فاليري (الريح تهب لا بد ان نحاول ، ان نحيا الهواء العظيم وهو يفتح كل الاوراق ، حتى النسيم ايضا له اوراقه) ويبقى الامل .. رمزا لخفقة كل قلب خسر - احلامه ومدنها -)

* الشعر .. قوة في الابصار ..

وندوة الشعر الجيد ودليل ندرة الينابيع التي فجرته طاقات مبدعة في تأريخ الادب والفن.. الشعر الجيد هو الصرح المتسامي دون ان يطاله ما يفكك اوصاله لانه ارقى مراحل العطاء بل هو جوهر هذا العطاء المتلاحم .. بين الكلمة والنغمة والاداء .. موسيقا القصيدة موهبة وخبرة ومران .. وهي ايضا تحضير وممارسة في اكتساب التجربة الشعورية ..

وليست هناك فلسفات بقادرة على ان تمحو قوة الابصار في الشعر العربي ولن تزيل من اصالته وموهبة رواده عبر العصور .. فقوة الابصار في هذا الشعر قدرة على استمراره وثباته دفاعا عن هذا الصرح المتدفق ..

فهو رمز لقاء الاجيال المتمثل بالشعر الجيد ..

* هملت .. مرثاة انسانية - :

ويبحث الملك عن حراسه السويسريين ..وكأن الولاء ضمير بلا براءة اقتيد الى الجحيم .. ويبحث عن براءته من دمه وهو يعرف ان الابن ينادي دموعه لتحرق البصر بعينيه .. والجنون حلم .. وأخته العذراء غالية تروي ان اباها الملك قد حملوه مكشوف الرأس بلا طقوس ملكية .. فذبلت الدنيا عقب التآمر عليه ولحيته بيضاء كالثلج . . فكيف تنسى الابنة الحزن عليه ..ويتواضع الملك المغتصب بأن التاج يمنحه ببركة دعائه.. يمنح من ؟ يمنح هاملت ام لياتريس ؟ أم ان الفأس والتآمر على كل من الاخوين ؟

وما الفائدة ايها الملك المغتصب اذا لمست بخيالك المريض قاتل - الاب - يتعقب خطواتك ؟ ويعترف ؟ قد كنت أحب أباك ياهاملت .. يالياتريس ..

ويجب ان تثأر لأبيك.. والخدش بسيفك قاتل ..

والعذراء غرقت بالغدير من على غصن بال جاف ..

وبرسالة تحمل في ثناياها التخلص من هاملت ، فما ان يطأ ارض انكلترا حتى يقتله ملكنا - وتنثال الحكمة على لسان هاملت الذي يعيش مع طيف ابيه وصدق تابعه :

العصفور لا يسقط الا بإرادة الله

وهو يدرك ان الجميع يقولون عنه انه مجنون .. حتى جنونه بات عدوا له..

وهل يقبل المصالحة والتفاهم مع أخيه.. ولا يجدوا احدا من السلالة قادرا على التفاهم معه ، والملك المغتصب يكيد

للاخوين بعدان فشل بارساله الى انكلترا
فالقرصان كانوا لصوصا كرماء وصديقة
لا ينساه ولو كان اسيرا ..
لكن رسول الملك المغتصب يغري هاملت
ويحاوره..
أذكى ولائي لحضرتك ياهاملت
والملك العابث يضع لؤلؤة غالية في
الكأس ، ويشرب الملك نخب المبارزة ..
المبارزة سيف وخنجر وثأر مكبوت وكيد
مرصود وتآمر مردود على أهله..
الملكة تشرب من كأس اللؤلؤة .. والجرح
في الاخوين اليم .. والموت افقد الملكة
حياتها ..ويصيح لياتريس .. الملك هو
المسؤول ويصرخ هاملت :

- يا زوج المحرمات خذ ايها القاتل هذه
الجرعة الحق بأمي ..
فالسم قد ركبه الملك بنفسه .. وعلى
نفسه جنى ..
وخسر هاملت اباه الملك ، كما خسر اخاه
وامه ، وزال هذا المغتصب ، وانقلب
الشر على رؤوس اصحابه ، وبقي هاملت
الصمت .. وقد كان السيفان مسمومين ..
وارتضى شكسبير ان يترك للمسرح جنونه..
وان يرسم الحب في اشد تصويره الما
فقال وقد كان مدينة احلامه : قتلاوجنونا
وتآمرا :
- اية وليمة تقيمها ايها الموت الابدي

* صورة اندلسية من القرن الثاني للهجرة
في كل يوم يكتب الانسان قصة
ويمثلها على مسرح العلاقات البشرية ..
فيتقن حبكتها ويربط عقدتها ..وكأن
الحياة مسرح جوال مرة ومسرح تجريبي
تجاري في اغلب المرات .. ففي نفح الطيب
الجزء الثالث منه وعلى الصفحة التاسعة
والثلاثين نقرأ هذا الحوار :
رعاياك يا امير ..
المقاتل : سلام الله عليك يا امير
الاندلس ..
يا بن الخلائق الراشدين .. يا امير
جندك يا مولاي ، ابعدوني عنك
وانت تعرفني .. يا امير الاندلس ،
عبد الرحمن الداخل : (صقر قريش)

- وعليك السلام .. ايها الجند
افسحوا له الطريق .. انه المقاتل
المشهور بالحزم والجرأة .. ..
امتنعوا عن الضوضاء ..
المقاتل :انت يا مولاي ابن السادة
الاكرمين .. واليك جئت ..
صقر قريش : اهلا بك .. اهلا .. حياك
الله ..
المقاتل : وبك عذت من زمن ظلوم ودهر
غشوم ..
صقر قريش : أأكون اميرا وتسمى زمني
ظالما ودهري غاشما .. يا هذا ..
ليس بهذا تقابل الامراء .. أيها
المقاتل ..
المقاتل : لا .. معاذ الله .. فقط ..
فقط .. لقد قل المال وكثر العيال
وشعث الحال .. فصيرني الى نداك
المآل ..
صقر قريش : صبرا .. صبرا .. ايها الرجل
المقاتل : كيف اصبر وانت ولي الحمد
والمجد والمرجو للرفد .
صقر قريش : ها انذا سمعت مقالتك ،
وسأقضي حاجتك
المقاتل : حماك الله من كل زمن ظلوم يا
مولاي ..
صقر قريش : آمر بعونك على دهري بألف
دينار .. وقد كرهنا سوء مقامك
المقاتل : ايد الله الامير .. ايد الله
الامير ..
صقر قريش : ولا تعودوته الى اراقة ماء
وجهك بتصريح مسألتك امام الجند
ولا بالالحاف بالطلب .
المقاتل : حفظ الله انتصاراتك يامولاي.
واعزك في كل معركة ..
صقر قريش : افهم ايها الرجل ..
اذا الم بك اي خطب فأت الينا
كيما نستر عليك خلتك .. وارفع الى ما
لكنا عز وجهه .. باخلاص الدعاء وصدق
النية .

* وعلى الارض :
وللعمالقة الكبار مدن غريبة
واحلام اسطورية وحصون انشئت على روية
وتخطيط تنفيذا لمصلحة دائمة
واستراتيجية تغطي من الزمن القادم
نصف قرن او يزيد .. فاحاطوا منشآتهم
بأسلحة نووية حذر الشتاء القاسي
النووي ، بيدهم القوى وموازينها ، وعلى
شيكاتهم تنويع الكوارث المروعة التي
توزع الرعب الذري بعواقب مفزعة .. الغول
الذري الذري لا غرابة بوحشيته وهمجيته ،
فآخر تفجيرات البيت الابيض كان يحمل
الرقم ٨١٥ في صحراء نيفادا ..
انه السلام تحت سنابك هذا الغول حيث

تمتد انيابه وتفترس وتستلب الخيرات
فكأن الارض كرة صالحة لمبارياتهم ولو
اتصل الدمار بالدمار .. والتهب الزيت
بالنار .. دفع في حرب النجوم ثلاثة الاف
مليار دولار ..

كل التوقعات التي تخدم مصلحتهم
الدائمة ، وكل الاحتمالات التي تحقق
استراتيجيتهم محسوبة بالدقة والازدواجية
فالبيت الابيض - وحده - ينفق في الدقيقة
الواحدة مليوني دولار وعلى الات التدمير
والفتك بالبشرية .. بينما يموت في كل
دقيقة عشرة اطفال جوعا وعوزا ومرضا ..

ألم يحصنوا مدنهم واحلامهم
بانواع من الصواريخ القصيرة والمتوسطة
والقارية .. وما الذي - بعد نشوب -
الدمار الشامل .. يبقى

وحياتكم ما حلها من بعدكم
غير البلى والهدم والنيران
ولعل عودة الانسان الى قيمة وارادته
تنقذه من آثام الايدي المستعمرة الملونة
بالدمار .. ليبني احلامه من جديد ..

محمد زهير الباشا

الحنين إلى الوطن في الأدب العربي

أحمد هوّاش

الوطن تلك البقعة المقدسة من الارض ، التي ترعرع على اديمها الاجداد والاباء ومن بعدهم الابناء ، فارتشفوا من مائها وتغذوا من خيراتها وتنفسوا هواءها ، وبذلك وجب عليهم حب هذه الارض ، والدفاع عنها ضد اي معتد غاصب ، وهذا مايطلق عليه " الوطنية " وتعني الحنو على بقاع الوطن وتقديس ارض الاجداد والفضيلة التي تشتمل عليها الوطنية انما هي حماية هذه الارض ودفع الاجنبي عنها ..
وعلى هذا الشكل فان أساتيذ الوطنية انما هم الكتاب والشعراء لأنهم يستطيعون وحدهم ان يتغنوا بوطنهم و ان يعلموا الناس محبة هذا الوطن ، وان يحملوهم على تذوق محاسن اشكاله والوانه ، وعلى مابه فكل وطنية مجردة من هذا الحنو ، منسلخة من هذا التقديس انما هي وطنية فارغة .

اننا لا ندفع الاجنبي عن ارضنا الا اذا اشربت قلوبنا محبة هذه الارض ، وتسلل هذا الحب احقابا طويلة ، ولايحسن افراغ هذه المحبة على قلوبنا مثل الكتاب والشعراء ، فهم القادرون على تصوير محاسن الوطن ، وهم القادرون على قذف محبته في نفوسنا ..
لنر كيف كان كتابنا وشعراؤنا يحنون على اوطانهم في متعاقب العصور .

من دراسة الملفات ، نرى شعراء الجاهلية قد بكوا على عفاء ديارهم وانمحاء منازلهم وانقطاع دمنهم ، وحنوا الى ديارهم ، فلا تكاد قصائدهم تخلو من آثار هذا كله .
اني اذا ذكرت قول امرىء القيس :
بكى صاحبي لما رأى الدرب دونه
وأيقن انا لاحقان بقيصرا
أدركت السر في هذا البكاء ، فكأنما صاحب امرىء القيس قد مر بوطن غيروطنه ونزل بأهل غير أهله فاجتاز جبالا وآجاما لا عهد له بمثلها من قبل فغلبت عليه الوحشة ، تلك الوحشة التي تغلب على صاحبها اذا ترك ربوعه ، ومربأماكن غريبة ، ولما ادركته الوحشة حن الى أهله وبكى على فراق وطنه وود لوحملته الرياح الى مضاربه .

ثم جاء القرآن الكريم وجاء باشارة الى منزلة الوطن في النفوس ، فمن آياته البينات : " ولو انا كتبنا عليهم ان اقتلوا انفسكم او اخرجوا من دياركم ما فعلوه الا قليل منهم " فقرن الضن بالاوطان الى الضن بمهج النفوس .
واذا بحثنا عن هذه الديار لوجدنا ان ارضها لم تضحك سماؤها ولا اخضل شجرها ولا تفجرت انهارها ، وهي عبارة عن صحراء صاهرة الشمس لا تأنس فيها

العين بخضرة ربيع او صفرة خريف ، ولا تنعم فيها الاذن بنوح عندليب او بحفيف ورق او بخرير ماء .
واذا تعلعلنا في ادبنا وجدنا ان هذا الادب لم يخل من الحنو على بقاع الوطن وتقديس ارض الاباء والاجداد ،واذا كان المقام يضيق عن اشباع الكلام على الشعراء والكتاب الذين حنوا على اوطانهم وقدسوها تقديسا فلا اقل من اشارة مختصرة الى بعضهم .

" ابو قطيفه " شاعر من شعراء بني امية اخرجوه من ثلاثة عشر قرنا من وطنه فأذاب الهم قلبه واتى عليه فرط النزاع على نحو ما يصيب الذين يحولونهم الى غير اوطانهم .

قدم الشام ابو قطيفة وفيها بنو امية ، فيها عز خلافتهم وبشاشتها ، فهل الهته قصوريزيد بن معاوية في دمشق عن قصور المدينة وآكامها ؟
القصر ، فالنخل ، فالجماء بينهما
أشهى الى القلب من ابواب جيرون
الى البلاط فما حازت قرائنه
دور بعدن عن الفحشاء والهون
فلم تشغله ابواب جيرون في ظلال مسجد بني امية في دمشق عن قصر سعيد بن العاص وعن نخله ، وعن الجماء ، وغير ذلك من امكان المدينة .
وكما بكى الشاعر على ارض آبائه واجداده وحن اليها فكذلك بكى على قومه أنفسهم واشتاق اليهم :
وهل برحت بطحاء قبر محمد
أراهط غر من قريش تباكره
لهم منتهى حبي وصفوة مودتي
ومحض الهوى مني وللناس سائره

وقد رد هذه النغمة في مقام آخر حيث قال :
أقطع الليل كله ، باكتئاب
وزفير ، فما أكاد أنام
نحو قومي اذا فرقت بيننا الدا
ر وحادت عن قصدها الاحلام
خشية ان يصبهم عنت الدهـ
ر وحرب يشب فيها الغلام
انه يخشى ان يصيب قومه عنت الدهر ، وانه يخشى الحرب بينهم فهو كئيب البال الليل كله ، لقد كان قلبه مشتتا في الحنين الى ارضه مرة ،والى قومه مرة ، فما ارق هذه العاطفة القومية ..

ثم جاء عصر بني العباس ، فاختمرت الفكرة الوطنية في القلوب ، حتى الف بعض الكتاب رسائل خاصة فيها ، ورسالة الجاحظ في الحنين الى الاوطان مشهورة وهو الذي يقول فيها:
" وترى الاعراب تحن الى البلد الجذب والمحل القفر والحجر الصلد وتستوخم الريف ، وترى الحضري يولد بأرض وباء فاذا وقع ببلاد اريف من بلاده ، وجنان اخصب من جنانه حن الى وطنه "

اما ابن الرومي فقد كان الناس يتشوقون الى اوطانهم ولا يفهمون العلة في ذلك حتى اوضحها في قصيدة يقول فيها :
ولي وطن آليت ان لا أبيعه
وأن لا ارى غيري له الدهرمالكا
عهدت بهاشرخ الشباب ونعمة
كنعمة قوم اصبحوا في ظلالكا
وحبب اوطان الرجال اليهم
مآرب قضاها الشباب هنالكا
اذا ذكروا اوطانهم ذكرتهم
عهود الصبا فيها فحنوا لذالكا

فوطنيته في هذه الابيات قريبة من وطنية عصرنا هذا ! .
وعندما حلت النكبة ببني امية وسقطت دولتهم بعد هزيمة آخرامرائهم " مروان ابن محمد " في موقعة " الزاب " امام جيوش بني العباس ، وكان ما هو معروف من مطاردة العباسيين لبقايا خصومهم الامويين والتنكيل بهم ، وكان ممن نجا من سيوفهم " عبد الرحمن الداخل " صقر قريش الذي واصل رحلته حتى وصل افريقيا تميهدا لدخول الاندلس فاتحا .
وكان عبد الرحمن في الخامسة والعشرين من عمره حين تولى امرالاندلس وارسى دعائم ملكه فيها ، وأقام بني أمية في المغرب ما يعوضهم عن دولتهم التي فقدوها بالمشرق .
وكان عبد الرحمن الداخل ، بعد ذلك كله ، شاعرا مجيدا وناشرا بليغا ، وكان شعره بصفة خاصة يصوره كانسان وكسياسي وكمحارب وكرجل حضارة وعمران فمن شعره الذي يصوره بانسانيته التي تحس الاغتراب وتحن الى موطن منشأه وتستشعر المشاركة الوجدانية مع الاشياء قوله عن نخلة رآها بالرصافة :
تبدت لنا وسط الرصافة نخلة
تناءت بارض المغرب عن وطن النخل
فقلت شبهي في التغرب والنوى

وطوال التنائي عن بني وعن اهلي
نشأت بأرض انت فيها غريبة
فمثلك في الاقصاء والمنتأى مثلي
سقتك غوادي المزن في المنأى الذي
يسح ويستمر بي السماكين بالوبل
ومن هذا الشعر الانساني ايضا قوله في حنينه الى المشرق :
أيها الراكب الميمم ارضي
اقر من بعضي السلام لبعض
ان جسمي كما تراه بأرض
وفؤادي ومالكه بأرض
قدر البين بيننا فافترقنا
وطوى البين عن جفوني في غمض

ولكن الشاعر الذي كان منقطع النظير في النزعة الوطنية انما هو ابن الساعاتي الدمشقي ، الذي ظهر في القرن السادس ، عصر صلاح الدين الايوبي ، حيث تغنى بوطنه اعذب غناء ، حيث ذاب في محبة دمشق ، ومتنزهات دمشق ، ذاب في محبة كثبانها ونسيمها وجوها ودوحها وبلابلها وظلها ومائها ، ذاب في هذه المحاسن كلها وذابت هذه المحاسن في شعره ويقول:
وحيرة السفح من لبنان جادكم
نظير دمعي اذا ما انهل او هطلا
تلونت مثل ايامي عهودكم
واستبدلوني ولم أطلب بهم بدلا
واها لشرخ شباب كنت مغتبطا
به وعمر وصال كان مقتبلا
الى ان يقول :
وان نار الهوى بالدمع ما خمدت
كما زعمتم وجرح الشوق ما اندملا
آها لقلب اسير في رحالكم
نصحته فيكم جهدي فما قبلا

لقد ملكت دمشق على ابن الساعاتي قلبه ولبه فاذا غاب عنها بكى على شرخ شبابه وعلى ايام جهله فيها وشكا تلون عهود اهلها واشتاق اليهم ورجا ان يقرب الله مزارهم فهو لا يسلوعنهم .. فيتمنى وهو في مصر لو تمر غادية شامية تحمل الى نفسه عن اهل دمشق منى هذه النفس :
حبذا غادية شامية
حملت عنكم الى النفس مناها
ما حداها الرعد الا قصرت
شقة الفسطاس ممدود خطاها
بلغت عنكم شفاها حبذا
حبذا ما بلغت عنكم شفاها

لا تلم عيني على طول البكا
كيف لا تدمع والبين قذاها
وكما ملكت دمشق على ابن الساعاتي قلبه ولبه كذلك كان شعور الشاعر " الحسن بن على الاسعد الذي قال فيه العماد الاصفهاني ، لم يكن بمصر في زمنه اشعر منه ، ومن بديع شعره قوله يتشوق الى نهر بردى في دمشق :
بالله يا ريح الشما
ل اذا اشتملت الروح بردا
وحملت من نشر الخزا
مى ما اغتدى للند يندا
ونسجت ما بين الغصو
ن اذا اعتلن هوى وودا
وهززت عند الصبح من
اعطافها قدا فتندا
نهر كنصل السيف تكسو
متنه الازهار غمدا
صقلته أنفاس النسيم
بمرض فليس يصدا
واني لذاكر شاعرا نظيرا لابن الساعاتي الدمشقي ، ظهر في فترة قريبة لزمن ابن الساعاتي حيث تغنى بمدينته " حماه " التي تركها مجبرا ، وترك لنا شعرا لا اجمل ولا احلى بوصف طبيعة حماه الجميلة ونهرها " العاصي " الرحيب ونواعيرها النائمة التي تدور متحركة كالقلب الخافق في الصدر ، يقول " ابن حجة الحموي " :
هواي بسفح القاسمية والجسر
اذا هب ذاك الريح فهو الهوى العذري
وفقري الى رشف الرضاب الذي حلا
من النهر حلى سائل الدمع في النحر
وعاص رحيب الصدر قد خر طائعا
ودولابه كالقلب يخفق في الصدر
وقد اشبه الخنساء نوحا وأنة
وهاد رمعه قد جاء يجري على صخر

ان نواعير حماه النائحة كالخنساء المفجوعة بأبنائها الاربعة لتشارك الشاعر حزنه ولوعته على فراق مدينته الحبيبة ، ولا ادل على ذلك من تلك الدموع التي تسيل وتجري على الصخور الصلدة ، وكم هو شوق لتذوق ماء العاصي ليسكر ثملا ويهيم بوجهه غير مدرك لأين يسير ، وهو بشوق وعنده رغبة جامحة لهذا الماء العجيب ، الذي يعطي الشاعر هذه الحلاوة والعذوبة في شعره .. كل ذلك بفضل بقايا طعم ماء العاصي بفم الشاعر ، فكيف لو كان الشاعر لا زال

قريبا من العاصي ويرتشف .. من مائه السحري متى ظمأ ؟؟

ما ارق شعور ابن حجة ، ما ألطف حسه ، ما اشد ذوقه لمحاسن الطبيعة ، فقد منحه الخالق سبحانه وتعالى عينا لا يفوتها حسن من محاسن هذه الطبيعة ، وانفا لا يفوته شيء من شميم روائحها الطيبة ، وأذنا فتنت بسماع ألحانها وانغامها ، ولقد اعطاه الله ايضا شيئا اجل من هذا كله ، اعطاه قدرة على تصوير هذه الطبيعة وعلى احيائها في شعره ، فهو شاعر الوطنية الحموية ، شاعر طبيعة حماه وخمائل حماه ، وبلابل حماه ، وكل جزء من اجزائها ، فانصورتها الواضحة ومرآتها الصافية ولسانها البليغ ولحنها العذب :

فياحيرة العاصي اذا ذقت ماءكم
أهيم كأني قد ثملت من السكر
ولولا بقايا طعمه في مذاقتي
لما ظهرت هذه الحلاوة في شعري
وقد اصبحت تلك الجزيرة جنة
ألم تنظروا الانهار من تحتها تجري
تفوق عيون الزهر فوق شطوطها
عيون المها بين الرصافة والجسر

لقد ملكت حماه على ابن حجة قلبه وعقله فاذا ما غادرها بكى على ايام صباه التي قضاها مع احبته فيها وهو بشوق اليهم رغم تلون عهود اهلها ، فهو لا يسلو عنهم ، انه واف لمن غدر منهم ، حافظ لعهد من ضيع كل عهد ، ما أشد شوقه لحماة وساكنيها ، ما اشد حبه ما اعذب شعره ، لقد خلق الله له نفسا حرة تصبو الى اخوانه وتبكي اذا غابت عن هؤلاء الاخوان فيقول :

وان كان قدري في طرابلس قد علا
وقد لقيتني وهي باسمة الثغر
فان فراق الالف والخل والهوى
وفقد الحمى والاهل صعب على الحر
فياساكني مغنى حماة نعمتم
صباحا ولو ألفيتم في الهوى ذكري
فودي ودي مثلما تعلمونه
ولكن صبري عنكم عاد كالصبر

ما اشد اعجابنا ببراعة الشاعر بهذا الباب ، لقد تغنى بوطنه اعذب غناء ، وتفنن بوصف طبيعته الخلابة واظهر محاسنها بشعر لم اسمع اجمل منه ، فما اعرف احد من الشعراء فضل الوطن معرفته ولا نعم بفتنة الطبيعة نعمته ولا الف افياءه الفته ولا اشتاق الى ارضه وسمائه اشتياقه ولا ذكر اخوانه في ظلاله ذكر لهؤلاء الاخوان ، لقد ذاب في محاسن طبيعة مدينته وذابت هذه المحاسن في شعره ، فرحم الله شاعرنا ..

ويظهر الشوق والحنين بشكل ظاهر عند شعراء المهجر حيث تبرز اصالة العربي وعمق منازعه القومية والانسانية لقد نزحوا عن اوطانهم الحبيبة صغارا ، ولما يحملوا منها كل زادهم من الثقافة والمعرفة .. واقبلوا على حياة غريبة جديدة ، يكدحون فيها طلبا للرزق ، ويركبون الصعب انتجاعا للمأوى . ولكنهم عرفوا مع هذا وذاك ان يجعلوا من جمال بلدهم الجديد مناسبة لتذكر روعة وطنهم الاصلي ، وعرفوا ان يصوغوا من عنائهم وتصبيهم معاني شريفة واحاسيس انسانية فاضت شعرا محنكا رائعا ..

ها هو الشاعر العربي المغترب يوسف غراب يتشوق الى مدينته حمص وكيف لا يحن اليها وبها نشأ وترعرع وهي قطعة من كبده كما يقول حيث كانت مرتع صباه وقد اجبرته الظروف المعاشية الصعبة على فراقها فهو بشوق لا حدود له لمدينة الحبيبة حمص .:

لم يبق فيك لغير الشوق متسع
يا خافقا يسع الدنيا وما تسع
أبعد " حمص " لنا دمع يراق على
منازل ام بنا من حادث جذع
دار نحن اليها كلما ذكرت
كأنما هي من أكبادنا قطع

ومن وراء البحار يرتفع صوت الشاعر القروي ، مرسلا حنينه واشواقه الحارة الى الفردوس المفقود "الاندلس" فيرسل اليها تحية عربية مفعمة كأنفاس الخزامى ، ذاكرا فاتح الاندلس العظيم البطل " عبد الرحمن الداخل " الذي ارسى دعائم الفتح العربي ناشرا القوة والعدل بانيا صرح الحضارة العربية المجيدة . حيث اضحت الاندلس منارة تشع العلم والازدهار والتقدم ، لتنير للعالم اجمع سبل الحق والخير والجمال مكملة رسالة العرب في شموخهم ، ومن كالشاعر القروي يصور هذا الحدث العظيم وتلك اللوعة اللاذعة بفقد ذلك الفردوس ، انه خير داعية لامته العربية ، عاش مع اقرانه في المهجر وعايشهم ، حمل همومهم وهموم امته ، لذا كانت هذه الابيات في الحنين الى الاندلس صدى لما يضطرم به فؤاده من

حب لوطنه الكبير، لذا نجد في كل بيت من قصيدته هذه اعصارا وتحس في كل حرف منها نارا ، والقصيدة بمجملها مجموعة احاسيس ونبضات قلب ثائر ونفس طافحة ملكت عليها " أشواق الحنين ، فليس بها الا الفخر بماض العرب ، والانفة من حاضر العرب ، والرجاء في مستقبل العرب ، والابيات من قصيدة انشدها الشاعر في المهجر بمناسبة قدوم الشاعر الاسباني فرنسيسكو فيلاسبا ، مدينته " صبنول "

خبرينا كيف نقريك السلاما
طيب النشر كأنفاس الخزامى
والشذا المحيي بسوريا العظاما
غادر الشام وبيروت وهاما
في بلاد حرة لم تحن هاما
وأنوف لم يقبلن الرغاما
خبرينا كيف نقريك السلاما

الى ان يقول :

ان (بالحمراء) أرواحا مطيفة
لم تزل تحمي ذرا القصر المنيفة
أرسلت من بنيها عن الخليفة
نظرات هن لعنات مخيفة :

...

ولبنان الجميل كم تعرض ويتعرض لمحن قاسية جعلت بعض ابنائه يركبون المركب الصعب مهاجرين طلبا للرزق ، ولكن الحنين والشوق لموطنهم الاصلي لم يفارقهم ساعة واحدة ، فهم يحلمون — بالعودة اليه ، بعد ان اجبرتهم الظروف الصعبة على مغادرته ولكن هيهات ان يتحقق الحلم يقول احد الشعراء اللبنانيين من المهجر :

خلقت ولكن كي اموت بها حبا
لذاك تراني مستهاما بها صبا
وما انا ممن ان ترامت له النوى
تروعه الدنيا ولو ملئت رعبا
ولكن لي في سفح صنين موطنا
يعز علي ان افارقه غصبا

تبا للبعد وفراق الاحبة والاهل والارض التي اشتملت على عظام قومه ورفاته وعن هذه السماء التي باركت لهؤلاء القوم ، انهم يبعدونه عن لحمه ودمه وعظمه ، عن منابت فكره وشعوره وعاطفته يقول الشاعر :

اذا ما ذكرت الاهل فيه كأنني
لدى ذكرهم استمطر الدمع منصبا
فلله هاتيك الربا وربوعها
فاني قد ضيعت في تربها القلبا
أعلل نفسي ان سئمت بعودة
ولكنها الايام تبا لها تبا

ويأخذ الحنين معنى خاصا عندما تكون الديار مستباحة محتلة يذوق ابناؤها كل يوم الذل والمهانة من المحتل ، عندئذ يأخذ الحنين شكل التحدي بالعودة وطرد المحتل يقول الشاعر الفلسطيني عبد الكريم الكرمي (ابو سلمى) مخاطبا وطنه فلسطين :

يا فلسطين .. نحن باسمك في الساح وقوفا
نخوض كل غمار
كم ارادوا ان يطفئوا اسم فلسطين
ولن يخمدوا خفوق الذراري
كل حرف تضيء فيه شموس
كل شمس تضيء الف نهار

ان الهم الفلسطيني هاجس الشاعر يعيشه صباح مساء ، وهو مع شعبه ، مع مقاتليه ، مع شهدائه الابرار :

معهم في المعارك الحمر قلبي
وجراحاتهم اكاليل غار
معهم في الخيام وفي الافق الرحب
مع الزمهرير والاعصار
في فلسطين خالدون على الدهر
خلود الجبال والانهار

وبعد هل احسن الكتاب والشعراء بافراغ محبة الوطن والحنين اليه في نفوسنا ؟ وهل احسنت بتقديم عطاءاتهم في الحنين الى الوطن ؟ ذلك ما ارجوه .

احمد هواش

المراجع :

١- بين البحر والصحراء ، شفيق جبري ، سلسلة اقرأ (٤٩)
٢ - في الشعر ، محمد الخضر الحسن
٣ - فرسان السيف والقلم ، مجلة الهلال مارس
٤ - دروب القومية العربية ، د . عبد الله عبد الدائم .
٥ - ديوان الشاعر عبد الكريم الكرمي دار العودة بيروت .

غوتفريد ولهلم لايبنتز

(١٦٤٦ - ١٧١٦)

أحمد سنبل

حياته :

ولد في ١ تموز ١٩٤٦ (وكان أبوه قانونيا كبيرا وأستاذا للاخلاق في جامعة (لايبزغ) وكانت أمه ابنة استاذ في الحقوق وذات ثقافة عالية . وكلا الابوين من أصل الماني .. وقد أنشأ لايبنتز نفسه بنفسه .. ترك له أبوه مكتبة غنية بكتب القدماء والمحدثين فقرأ فيها كل ما يستطيع قراءته وفقا لرغائبه وميوله دون أن توجيه .. وكان يعتزل أياما طويلة في مكتبة أبيه فيطالع كل ما يقع تحت يديه ، وعلى الأغلب كتب القدماء ، فتأثر فكره

واسلوبه بهم .. تميز لايبنتز منذ حداثته بصفتين أساسيتين : سلامة تفكيره ومقدرته على تمثلما يقرأ بسهولة..دخل جامعة لايبزغ ، وفي سنة ١٦٦٣ قدم للجامعة أطروحة ناجحة عن مبدأ التفرد ، ثم قرر أن يصبح محاميا .. وقدم اطروحة في الحقوق لجامعة لايبزغ لينال درجة الدكتوراه .. لكن الجامعة لم تمنحه اللقب لحداثة سنه فذهب لألتدروف قرب نورمبرغ وقدم الاطروحة ذاتها فنجحت نجاحا كبيرا وطلب اليه أن يبقى استاذا في الجامعة ولكنه لم يفعل .

وكان من نتيجة احتكاكه المباشر بالواقع واختباراته في حياته العامة أن خرج بنظرية جديدة لتعليم التشريع .. ونشر في مناسبات شتى رسائل سياسية مختلفة) (١) .

كان كثير الاسفار ، تعرف على سبينوزا في أمستردام . كان مضطرب الحياة . ثقف نفسه بنفسه ، جمع ميزتين كبيرتين : روح الاكتشاف وروح المنهج . توفي اثر سكتة قلبية في ١٤ تشرين الثاني ١٧١٦ . يشبهه الكثيرون بأفلاطون كبير فلاسفة اليونان .

كتبه :

- ١٦٧٠ نظرية جديدة لتعليم التشريع
- ١٦٧١ رسالة (نظرية في الحركة المحدودة) .
- ١٦٨٤ تأملات في المعرفة والحقيقة والمعاني .
- ١٦٨٦ مقال في ما بعد الطبيعة .
- ١٦٩٥ مذهب جديد في الطبيعة واتصال الجواهر .
- ١٧٠١ - ١٧٠٩ محاولات جديدة في الفهم الانساني .
- ١٧١٠ محاولات في العدالة الالهية .
- ١٧١٤ المونادولوجيا .

منهجه :

يقول : (لقد تأثرت بمذهب جديد . ومنذ ذلك الحين أظنني ارى وجها جديدا لباطن الإشياء . هذا المذهب يبدو جامعا أفلاطون الى ديمقراطس ، وأرسطو الى ديكارت ، والمدرسين الى المحدثين ، واللاهوت والاخلاق الى العقل . ويلوح أنه يأخذ الافضل من كل صوب ، ثم يمضي الى أبعد مما مضوا للان . واذا التفتنا الى آثار الحقيقة هذه عند القدماء ، استخرجنا التبر من التراب ، والماس من المنجم ، والنور من الظلمات وأقمنا فلسفة دائمة

من المقطع السابق يتبين لنا أن لايبنتز أراد من فلسفته ان تكون منهجا يحوي بين طياته كل الفلسفات

التي سبقته . وكانت غايته انشاء علم كلي ، أو لغة كلية يمكن لكل الناس أن يفهموها ، وتلك كانت محاولة خالدة لتوحيد الثقافة .

نجد ديكارت قد وضع منهجا لنفسه في المعرفة ، وقد كان غرضه انشاء رياضيات كلية ، او لغة رياضية تعبر عن كل الحقائق مع الاحتفاظ بالكوجيتو ، بينما نجد لايبنتز قد ذهب الى أبعد من ذلك حين أراد انشاء علم الخصائص الكلية ، ويقصد بذلك الاستعاضة عن الاشياء والمفاهيم التي تترجم اليها بمجموعة رموز تكون بمثابة لغة عالمية لكل العلوم والفلسفات ، كما أراد ايجاد قانون يؤلف بين كل الفلسفات .

فكرة عن المونادولوجيا

المونادا كلمة يونانية الاصل معناها الوحدة ، وهي الجوهر . وقد يكون معناها الجوهر الروحي ، وقوام هذا الجوهر الروحي يسميه بالاشتهاء أو النزوع ، وبهذا يرجع لايبنتز الى عالم الاغريق . وقد يكون قوام هذا الجوهر هو الوحدة التعبيرية أو التصورية .. والتعبير عنه : كل موجود يعبر عن موجود آخر عندما تكون هناك علاقة ثابتة ومنظمة فالتعبير هو جنس من أنواعه الادراك الطبيعي والانفعال الحيواني والمعرفة العقلية . بالنتيجة يكون الموناد نزعة وادراك .. ويضيف ان الادراك ليس بالضرورة وعيا ، وهناك ادراك تام يتراخى الى درجة الاغماء ، ويتراخى عند الحيوان حتى يكاد يكون عدم تأثر ، وهذا التأثر ليس مصحوبا بشعور .

فالموناد هو جوهر روحي يتميز بالنزعة والاشتهاء .. وهو الادراك الذي يتراوح بين الوعي الكامل وبين حالة تحاذي اللاادراك دون أن تصبح لا ادراك .

يوضح لايبنتز مذهبه المونادي باحدى رسائله فيقول : (أعتقد ان كون المخلوقات بكامله يتألف من جواهر بسيطة او مونادات ومن تجمعها مع بعضها فقط . وهذه الجواهر البسيطة هي منا نسميه بالعقل فينا وفي الملائكة ، وهي ما نسميه بالنفس عند الحيوانات وتتميز كلها بوجود الادراك والاشتهاء .. ونسمي مجموع المونادات أجساما ، ثم ان ما يظهر منفعلا ومتجانسا ومقاوما في الاجسام هو الكتلة التي نسميها مادة .. والاجزاء توجد بالفعل وهي تتقدم في وجودها على الكل .. وعلى ذلك لا يجوز ان نتصور المونادات على أنها نقاط في مكان حقيقي او تتدافع او تتصل بعضها ببعض . ان الظواهر تجلعها تبدو على هذا الشكل . والحركة هي ظاهرة التغير في الزمان والمكان ، أما الجسم فهو الظاهرة التي تتغير ، وأما قوانين الحركة فانها تنبثق عن الاسباب الغائية) .

الله :

(١)

فوق المونادات المتناهية توجد المونادا العظمى اللامتناهية أو الله ، ووجود الله ثابت بأدلة انية ودليل لمي . أما الادلة الانية فثلاثة : سبق التناسق أو لا . وثانيا نجمع الدليل من اعتباد المونادات ماهيات ، ومؤداة ان مبدأ الاتصال يأبى الانتقال الفجائي ، واذن فليست تنتقل المونادات من العدم الى الوجود انتقالا فجائيا . ولكن المكنات موجودات لا متناهية في الصغر ، موجودة في ذات هي الذات الالهية ، وتحاول ان تتحقق ، وتتعارض في محاولاتها ، فلا بد من علة ترفع العائق في سبيل البعض الذي يتحقق ، والدليل الثابت يؤخذ من المتجانسات التي لا يلحقها تعارض ، ذلك بأن مبادىء الاشياء الحادثة ، وهي الزمان والمكان والمادة ، متجانسة تحتمل كل تعيين فليست تقتضي المادة بذاتها الحركة دون السكون ، ولا حركة معينة دون أخرى ، فلا بد من علة تختار وتحقق ، وتكون موجودا ضروريا ينطوي على علة وجوده .

أما الدليل اللمي فهو : ان الله ممكن وفكرته لا تتضمن تناقضا ، والممكن يقتضي الوجود او يميل بذاته الى الوجود بقدر ما فيه من كمال ، ولما كان الله غير متناه فليس يعترض ميله الى الوجود شيء مغاير له .. فالممكن الذي هو الله بمحض كونه ممكنا ، والامكان والوجود شيء واحد فيه .

ان الله عند لايبنتز هو سلسلة رياضية تضيف الى كل سلسلة عددا دون ان تقف عند حد معين .. انها سلسلة لانهائية وقانون هذه السلسلة الرياضية هو خارج عنها ونجده في الجوهر (الموناد) وبما ان الجواهر لامتناهية فقانونها أو معقوليتها هي الله .

وبهذه المناسبة ، ما هو موقف الفيلسوف من الله ؟؟

يقول في مقدمة الثيودوسيا التي نشرها عام ١٧١٠ : (ان التقوى الصحيحة بل والسعادة الصحيحة هي في ان نحب

الله شريطة انيكون حبا مغيرا ترافق شدته الضياء • وهذا النوع من الحب يولد لذة في الاعمال الصالحة التي تبرز معها الفضيلة ، وهو اذ يرجع كل شيء الى الله ، المصدر الاول ، يتسامى بما هو انساني نحو ما هو الهي ، لان الانسان اذ لا يقوم بواجبه ، واذ يطيع أوامر العقل الاسمى ، ويوجه ميوله كلها نحو الخير العام الذي لا يختلف عن المجد الالهي •)

مبدأ العلة الكافية :

لا بد من طرح السؤال : لماذا نحكم بالخطأ على ما احتوى تناقضا ؟ ؟
لا شيء يوجد بدون علة معقولة •
كل موجود له علة •
بالتالي : يجب على كل موجود ان يؤدي حسابا عن وجوده حتى يصبح معقولا •
فالمسبب متضمن في الوجود نفسه ، والعقل متضمن في الوجود • والعقل هو الوجود ، ونجد لايبنتز يصر على اضافة شيء جديد هو مبدأ العقل الكافي ليعطي هوية جديدة للموجود ، فالموجود عنده يؤلف وحدة ذاتية تتضمن سبررات وجودها فيها •• فمبدأ السبب الكافي يتمم الهوية ويضيف شيئا جديدا •
كما ان لايبنتز يطرح فكرة الامكان في جدلية عقلية على النحو التالي : ان نظام الامكان له الاولوية على نظام الوجود المتحقق المنجز •• واذا كان الموجود لا متناهي الامكانات فان الوجود يفقد القاع ويصبح (هوة) لا يحدده العقل • ولكن من الذي يضبط هذا كله ؟؟ هو الله •• هو الذي يضبط الحسابات فتكون النتيجة هي هذا الوجود •

وبالنهاية نقول بل ننقل التعريف بكتاب الدكتور جورج طعمة (فلسفة لايبنتز) (وكان لا يبنتز من مؤسسي الفلسفة الحديثة ومن كبار فلاسفة الانسانية • • عرف بعبقرية شاملة فلم تقتصر مساهماته على الفلسفة بل تعدتها الى الرياضيات والعلوم الطبيعية ، وكان رائدا من رواد المنطق الرياضي فأدرك أهميته قبل أي من معاصريه ، لكن لايبنتز لم يقطع صلته بالتقليد الفلسفي بل أعطى القدماء مكانتهم ، وكان بمثابة الصلة بين القديم والجديد • كانت مشكلته استمرارا للمشكلة الفلسفية الكبرى : الموجود تفسيره واكتشاف المبدأ الاول فيه ، وتحديد مركز الانسان في الكون وتأكيد حريته • وقد ذهب الى ان الجوهر قوامه قوة روحية فاعلة تحقق في نموها المبدأ الروحي الكلي الذي ينظم جميع الموجودات وتتدرج مراتب الموجودات تبعا لوضوح ادراكها او غموضه • ومن هذا المبدأ تحدر تأثير لايبنتز الى كبار فلاسفة العصر الحديث ككانت وفخته وهيجل) ••

(*) فلسفة لايبنتز ـ جورج طعمة دكتور في الفلسفة •

ترجمة رسالة الغفران

بقلم: الياس سعد غالي

زعم اديب حلب قسطاكي الحمصي ان دانتي " سرق موضوعه " من رسالة الغفران التي قرآها اما في نصها العربي واما في ترجمتها اللاتينية ، وقال ايضا : هب ان دانتي لم يدرس العربية فمما لا ريب فيه انه كان قد ترجم كثير من الكتب العربية فلا سبيل الى الشك في ترجمة رسالة الغفران الى اللاتينية والا بد للناقد من القول ان دانتي قرأ رسالة الغفران بالعربية او ترجمتها في دير كاسينو (١) . ولم يثبت الحمصي علميا ان نسخة من رسالة العفران بالعربية وصلت الى دانتي او انها ترجمت في جملة ما ترجم ووصلت الى دير كاسينو واطلع دانتي عليها ، في حين ان دانتي ما عرج قط على هذا الدير بالاستناد الى خريطة تنقلاته (٢) . وقد اكتفى فؤاد افرام البستاني برفض اتهام الحمصي لدانتي بهذا الخصوص على انه امر يحتاج الى شيء اثبت من الظن والتخمين (٣) .

وقال الاديب حسن عبد العال، (٤) مؤخرا مثل قول الحمصي : ابو العلاء هو الذي أوحى الى دانتي " الكوميديا الالهية " وما ذكره المعري في رسالة الغفران يكاد يكون مترجما كله في الكوميديا الالهية .. لقد نقل العرب الى الاوروبيين ابان احتلالهم لاسبانيا روائع أدب المشرق والمغرب .. ولا بد ان يكون دانتي اطلع على ترجمة لرسالة الغفران فأوحت اليه بكتابة الكوميديا الالهية .. " واستشهد الكاتب ايضا بمقال للمازني " أوضح فيه مواضع الشبه بين الاصل والفرع حتى انه اتهم دانتي بترجمة رسالة الغفران حرفيا . وهكذا أقام البرهان الصادق القاطع على صحة مزاعمه ..

وقد افضى الدكتور حسن عثمان بحديث الى نبيل فرج جاء فيه : ربما ترجمت رسالة الغفران (٥) . وأكدا بلوشيه ان دانتي ما كان يعرف كلمة عربية ولا الادب العربي (٦) ، وعلق المستشرقون الايطالي غبريللي على ذلك بقوله : الامر كما نعلمه نحن المستشرقين حق العلم يقتضي اكثر من مجرد

الالمام بقليل من العربية لفهم مؤلفات ابي العلاء. .. وان دانتي لم يكن يعرف العربية ورسالة الغفران لم تنقل الى اي لغة اوروبية في عهد دانتي (٧).

فنحاول التعرف الى مدى حقيقة صدق هذه الاراء او بطلانها:

لقد اشارت الد. بنت الشاطىء الى ان نيكلسون لخص القسم الاول من رسالة الغفران وترجمه عام ١٩٠٠، ولخص القسم الثاني وترجمه عام ١٩٠٢ (٩) واشار الد. مصطفى صالح الى ماذكرته بنت الشاطىء بهذا الخصوص والى ترجمة مايسا للقسم الاول من رسالة الغفران بالفرنسية عام ١٩٣٢ (١٠) واشار الى ترجمة مايسا ايضا الد. علي شلق في كتابه: ابو العلاء المعري ١٩٨١ ص ٩٦ رقم ٣٢ (١١).

اما ترجمة ج. براكنبوري لرسالة الغفران الى الانكليزية لندن ١٩٤٣ فقد عرف بها ابراهيم المازني (١٢) واشار اليها مصطفى صالح (٤/ج). لكن الشيء الهام في هذا الخصوص ما قاله كامل كيلاني في كتابه " على هامش الغفران "

" ان الله يسر لنا ان نتعاون مع الاديب الانكليزي المسترج براكنبوري على اخراج ترجمة انكليزية لرسالة الغفران مقتبسة من الطبعة الثالثة وترجمة ثانية مقتبسة من "حديقة ابي العلاء" (١٣). وقد ظهرت الاولى فلقيت من ادباء العرب ومفكريه ما هي خليقة به من الاعجاب والاطراء وستتبعها الثانية بعد قريب. اما ترجمة براكنبوري فقد ارخت عام ١٩٤٣ فلا بد من ان يكون كامل كيلاني نشر كتابه على هامش الغفران " بعد هذا التاريخ وقد اعتبر هو نفسه كتابه المشار اليه ترجمة لنصوص رسالة الغفران من لغة ابي العلاء المعري الى العربية باسلوب عصري واستعمل كلمة " ترجمة " مرات. وقول الكيلاني هذا يدل على انه نشر طبعة ثالثة من رسالة الغفران، ولم يذكر تاريخ نشرها، ولمح في هذا الكتاب الى " طبعة رابعة لرسالة الغفران " رجا ان يتيسر له نشرها قريبا وهي ستتضمن شرح الغريب والكشف عن غوامض الاسلوب وتبين ما قد يكون من الاشارات وما الى ذلك كله مما يتطلبه درس النص بصورة وافية ان شاء الله (١٤).

وقد نشرت جريدة الانوار البيروتية في الصفحة ٧ من عددها المؤرخ ـ ١٩٨١/١/٧ مايلي:

ترجمة فرنسية بعد الروسية لابي العلاء المعري. بعد ترجمة موسكو بالروسية لكتب ابي العلاء المعري والتي اشرنا اليها قبل ايام أصدرت احدى دور النشر الفرنسية ايضا ترجمة لديوان شعر ابي العلاء المعري الذي عاش في القرن الحادي عشر. تتضمن الترجمة الفرنسية مختارات من ديوان سقط الزند واللزوميات وكذلك رسالة الغفران.

وجاء في جريدة الثورة الدمشقية في العدد ٦٧١٢ ـ ٨٥/٢/٧ " ان الترجمة الفرنسية الاولى لرسالة الغفران صدرت في باريس مؤخرا من دار غاليمار الفرنسية بالتعاون مع منظمة الاونسكو وان المستشرق الفرنسي فينسان مونتيه هو الذي قام بالترجمة من العربية الى الفرنسية.

وجاء في جريدة البعث الدمشقية في العدد ٦٨٣٠ ـ ٨٥/٧/٣٠ ان دار غاليمار الفرنسية للنشر

اصدرت بالتعاون مع منظمة اليونسكو الفرنسية " رسالة الغفران " ، للفيلسوف الشاعر العربي ابي العلاء المعري ترجمها الى الفرنسية المستشرق فنسان مونتيه .

وفي نشرة معهد المخطوطات العربية التابع لجامعة الدول العربية (الكويت) في العدد ١٧يناير فبراير (كانون الثاني - شباط) ١٩٨٥ذكر في الصفحة ٢٧ خبر صدور " رسالة الغفران لأبي العلاء المعري تحقيق المستشرق فنسان مونتاي ، باريس ، منظمة اليونسكو سلسلة معرفة الشرق ١٩٨٤. وفي العدد ١٨ (آذار نيسان ١٩٨٥ص ٣٤ ذكرت النشرة ذاتها بين ما صدر من كتب التراث رسالة الغفران لابي العلاء (بالفرنسية) ترجمة فينسان مونتيه ، باريس دار غاليمار بالتعاون مع منظمة اليونسكو الدولية ١٩٨٥.

وفي جريدة المحرر البيروتية كان نشر الاستاذ رشيد ياسين مقالا حول دانتي وبياتريس قال فيه : ان دانتي استمد فكرة ملحمته من رسالة الغفران +. وان هذا الرأي ليس بمستبعد فقد " ترجمت رسالة الغفران لابي العلاء الى اللاتينية في القرن الثالث عشر "(١٥) كذا..

وقد نشرت لنا مجلة الثقافة الاسبوعية الدمشقية بحثا حول ترجمة رسالة الغفران تعليقا على مقال الاستاذ رشيد ياسين نورده كاملا تقريبا (١٦) ففيه فائدة لازالة غموض ما زال يكتنف الموضوع ويخامر بعض الكتاب .

سأل الاستاذ رشيد ياسين في مقاله : هل تأثر دانتي بأبي العلاء ام لا ، وذكر ان ثمة رأيا يقول بأن دانتي استمد فكرة ملحمته من رسالة الغفران ..التي ترجمت الى اللاتينية في القرن الثالث عشر .

ولاعتقادي ان الاستاذ رشيد ياسين قد وقع في خطأ فيما يتعلق بترجمة رسالة الغفران في القرن الثالث عشر رغبت في لفت انتباهه الى هذه الناحية والى ضرورة اعادة النظر في مصدره برسالة شخصية لم تحظ بجواب ، وذلك بالنظر الى أهمية الموضوع ، من الناحية العلمية ، وبالنسبة الى العلماء والباحثين عامة ، على أمل ان يرشدنا الى المصدر الموثوق الذي اعتمده ويثبت ان رسالة الغفران ترجمت فعلا الى اللاتينية او غيرها من القرن الثالث عشر .

ففي حد علمنا بالاستناد الى بحوث علماء ومفكرين جديين استطعت الاطلاع عليها انهم لم يجدوا في ماكتبه الاقدمون عن ابي العلاء ، مع ذيوع شهرته في المشرق والمغرب وفي الاندلس خاصة ، اهتماما واضحا لهم برسالة الغفران وقد اكتفى بذكر اسمها مجردا بين ثبت مؤلفاته ، وهذا هو الغالب، ولكن هنا وهناك عبارات موجزة عقب بها بعض المؤلفين حين اتى ذكر رسالة الغفران وهذه التعقيبات لا تغني ولا تدل على عناية خاصة لهم بها (١٧) .

ومع ان كتبا عربية كثيرة ترجمت الى اللاتينية لم يقم حتى اليوم دليل على ان رسالة الغفران قد ترجمت في جملة ما ترجم الى اي لغة اوروبية حتى عهد دانتي (١٨) الذي كان يجهل العربية ، وترجمتها كاملة ضرب من المحال بشهادة نيكلسون ولم تكن بعد قد ترجمت الى العربية باسلوب عصري، (١٩).

وفي حد علمنا ايضا ان اسم ابي العلاء لم يذكر في كتابات أجنبية قبل عام ١٦٣٨، ففابريسيوس اول من ترجم قصيدة كل من سقط الزند للمعري ، وجاء بعده فولير الذي ترجم عام ١٩٢٧ قصيدتين من سقطالزند و ا ٠ كروميير الذي ترجم عام ١٨٧٥بضع قصائد من اللزميات ومرجليوث الذي ترجم عام ١٨٩٨ ، رسائل ابي العلاء القصيرة ، وفي عام ١٨٩٩ وصف نيكلسون مخطوطة لرسالة الغفران وترجم القسم الاول منها عام ١٩٠٠والقسم الثاني عام ١٩٠٢، واشار الى ان ترجمة هذه الرسالة ترجمة غير ممكنة بسبب المناقشات اللغوية التي تحتل مكانا كبيرا ولا تقبل النقل خشية الاسهاب الذي من شأنه ان ينفر القراء غير المتخصصين ٠

وترجم امين الريحاني الى الانكليزية شعر رباعيات ابي العلاء من اللزوميات وسقط الزند عام ١٩٠٣وقد سبقه الى ترجمتها كريمر (٢٠)

وقد ترجم م ٠ س ٠ ميسا عام ١٩٣٢ القسم الاول من رسالة الغفران وحذف عبارات كثيرة (٢١)٠

فهل من عجب بعد هذا العرض اذا ما ساورتنا الشكوك في صحة مصدر الاستاذ رشيدياسين وتحتم علينا ازاء جزمه القاطع بان رسالة الغفران قد ترجمت الى اللاتينية في القرن الثالث عشر مطالبته بالتحقق من صحة مصدره الذياستند اليه ، وان كان ثبوت حقيقة الترجمة في التاريخ المشار اليه وقبله ايضا لا يكفي وحده – في نظرنا ونظر العلم – لاثبات الزعم القائل بان دانتي اطلع عليها واقتبس منها ما لم ينهض دليل اخر ملموس على صحة ذلك٠

يخيل لي ان رأي الاستاذ رشيد ياسين بأن رسالة الغفران ترجمت الى اللاتينية في القرن الثالث عشرما هو الا ترديد لزعم قسطاكي الحمصي المتهافت الذي اشرنا اليه سابقا ، واحسبني ارجح انه كان نتيجة خداع نظر في اثناء المطالعة فحسب ، الى ان يتكرم هو وغيرة بارشادنا الى والذي ننتظره بلهفة دائما٠ولكيلا نترك الموضوع مبتورا ، والفرصة سانحة ، يتحتم علينا ان نبين ما حدانا على الشك في صحة ذلك الرأي،

في تصورنا ان الاستاذ ياسين كتب مقاله المنوه به في هذا البحث مستندا الى ديوان دانتي الاول " الحياة الجديدة "، موضوع بحثه ، وقد جاء في احدى حواشي الكتاب (٢٢) ان دانتي ، لكي يدل على تاريخ وفاة حبيبته بياتريس ، استمد معلوماته عن الاشهر الشرقية (العربية والسورية) من الكتب العربية المترجمة الى اللاتينية الكثيرة الاستعمال ولا سيما من كتاب " الفراغان " فقد يكون الاستاذ ياسين قرأ هذه الكلمة هكذا " الغفران " ولكن ليس في رسالة الغفران اي اهتمام او بحث يتعلق بتقويم السنين والشهور موضوع اهتمام دانتي من جهة ، ومن جهة ثانية ، لان كلمة الفراغان لا تدل قطعا على الغفران بل هي اسم او نسبة لشخص ٠ واذا بحثنا في دائرة المعارف الفرنسية (معجم لاروس ، الكبير الموسوعي) عن كلمة الفراغان نجد كلمة الفراغانوس وازاءها احالة الى كلمة الفرغاني (٢٣) التي تشير الى محمد ، او احمد بن كثير الفرغاني نسبة الى فرغانة وهوفلكي عربي من القرن

التاسع وله كتاب جوامع علم النجوم والحركات السماوية ترجمة الى اللاتينية جان الاشبيلي ، وجيرار دوكريمون من القرن الثاني عشر . ورد في معجم " المنجد في الإعلام ذكر هذا الفلكي العربي باسم الفرغاني (ابو العباس احمد) ولم يذكر في معجم الاعلام لخير الدين الزركلي (٢٤)

عسانا ، اذا كنا لم نخطئ في ماذهبنا اليه ، ان نكون قمنا بواجب وبقصد النفع والانتفاع وخدمة حقيقة علمية .

هوامش :

- قسطاكي الحمصي : منهل الوراد في علم الانتقاد ج ١٩٣٥/٣ص ١٨٤ ، و ١٨٥و ١٩٠- ١٩٢و ١٩٧و ١٩٩و ٢٤٤ و ٢٠٤ و ٢٣١
- مصطفى صالح : كشاف مصادر دراسة ابي العلاء ص ١٨١
٢ - لا . بومبياني : معجم المؤلفين ج ١ ص٣٨٣ (كاسينو جنوب روما . دانتي وصل الى روما ولم يتجاوزها جنوباً - معجم لاروس الكبير الموسوعي : ج ٢ ص ٦٨٤ كاسان - واطلس جان دلفوس ط ٢ ايداع١٩٥١، خريطة ايطاليا ٢٦ ، لم يذكر دانتي اسم جبل كاسينو في كوميدياه الا مرة واحدة في معرض حديثه عن القديس بنديكتوس (٤٨٠ - ٥٤٣) الذي التقى به في السماء السابعة وهو الذي اسس ديرا لرهبانة البندكتيين وكان اول من بشر بالمسيح في تلك المنطقة فقال : كان يرتاد قمة كاسينو قديما أناس في ضلال وكانوا سيئي النية . لقد انقذت المناطق المجاورة من عبادة الاوثان .وروي غريغوريوس الكبير في محاوراته كيف دمر القديس بنديكتوس هيكل الاله ابولون فيجبل كاسينو واقام على انقاضه ديرا لرهباته (دانتي: الفردوس النشيد ٣٧/٢٢ ص ٢٠١)
- غريغوريوس : المحاورات الكتاب ٢/٢ ص ١٦٧و ١٦٩)
٣- فؤاد افرام البستاني :الروائع ابو العلاء المعري العدد ١٧ص/ ن
٤ - حسن عبد العال : مجلة الضاد عدد ايلول وتشرين الاول ١٩٨٦، ص ٣٣ و ٣٤
٥ - حسن عثمان : مجلة الثقافة الاسبوعية العدد ١٠٢ـا ١٩٧٥/١٠/٩ نفس المقال نشر في ملحق جريدة الانوار البيروتية العدد ٣٦٩٣ ، تاريخ ١٩٧١/٢/١٤
٦ - ا . بلوشيه : المصادر الشرقية للكوميديا الالهية ١٨٩٩ص ١٠و ١١
٧ - ا - ف .غبريللي : مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق عدد ك ١٩٥٨/٢وجريدة النهار عدد ١٩٧٤/٣/٢٧،وجريدة الثورة عدد ١٩٧٤/٤/٣
٨ - د . حسام الخطيب : كتاب الادب الاوروبي ص ٧٨ والندوة التلفزيونية مساء الاربعاء ١٩٨٣/٧/٢٨
٩ - بنت الشاطئ : رسالة الغفران ط ٢ / ١٩٥٧ ص ٩٥
١٠- مصطفى صالح : كشاف مصادر دراسة ابي العلاء :
١- نيكلسون ص ١٥٢ رقم ١٧٢ و . ص ١٥٣رقم ١٧٢و ١٧٤و ١٧٧
ب - مايسا ص ١٨٥رقم ٢٨٨
ج - براكنبوري عن طبعة كامل كيلاني ص ٢١٣ رقم ٤٠١
١١- د . علي شلق : ابو العلاء المعري ص ٩٦ رقم ٣٢

رسالة أب لابنه

ابني عمار

اكتب إليك بعد ان انهيت كُتَيّباً لاستيفان رافايغ اسمه ليون تولستوي اعتقد انك تعرفه وأنك قرأت له من مكتبتنا البسيطة كتاب الطفولة والمراهقة والشباب.ما اعظم هذا الناقد ستيفان هل تدري يا بني بأن أباك لم يُنه الكتاب إلا والدموع كادت تنهمر من عينيه بالرغم من أن الكتاب نقد لهذا الكاتب العظيم والكبير .

لقد كانت الكلمات الأخيرة لتولستوي وهو يتضرع إلى الله الذي يُعَرِّفه بأنه «ذلك الكلي اللامتناهي الذي ليس الانسان بالقياس إلا جزءاً متناهياً . يتجلى في اطار من المادة والزمان والمكان .» ومصرحاً بأن وحدة البشر على هذه الأرض لن تكون الا بطريق الحب . هذه هي كلمته الأخيرة ثم خيم الظلام على هذا الدماغ الرائع المتألق.قلت لك بأن دموعي كادت تنهمر تذكرت يا بني قصيدة لي نشرتها مجلة جيش الشعب في عام ١٩٧٣ وأظن أنك قرأتها وهي بعنوان يا أخي الانسان . اتذكر يا عمار مقطعاً منها لا بأس يا بني سأعيد عليك مقطعاً :

« ياأخي الانسان ، أنا أحبك من أي وطن كنت أنت أخي »

حقاً يا عمار ان الحب هو السعادة وان البشرية لن تسعد الا بالمحبة .إ ولا تنس ان نبينا الكريم قد دعا إلى ذلك بل ان دعوته قد قامت على هذا الأساس .

لقد مررت بتجربة قاسية يا عمار خلال هذا العام كادت تعصف بي إنها تجربة نفسية كبيرة سأحدثك عنها عند عودتك .

قرأت رسالتك وأفضل أن تعود بالطائرة هذا العام كما وأرجو أن يكون عامك عام نجاح وتوفيق وان تعود إلينا بالسلامة . لأخيك وعمك السلام ومن أمك وأخوتك المحبة واسلم لأبيك .

محمود فلاح

٨٧/٦/١٨

مذكرات رجل مريض بالوعي

قصة : سعيد سالم

يربكني مرور الايام ومجهولية لحظة النهاية ، أحتار في أمر آمال تحققت وطموحات اغتيلت وأمنيات سرقها الزمن ، شغلت نفسي طوال الاسبوع الماضي ، بالتفكير في مجموعة من المخلوقات التي تمشي على قدمين ، لأن تحقيق ارادتي كان دائما رهن ارادتهم ، كلما أردت شيئا كان على أن أنتظر سماحهم . انهم كثيرون يعيشون في بلاد مختلفة ويفكرون بعقول مختلفة ، غفوت لحظة أثناء تناولي طعام الغذاء بالامس فرأيت نفسي ممسكا بمدفع رشاش سريع الطلقات ورحت أجوب الدنيا بحثا عنهم ، وكلما وجدت أحدهم حددت بطلقات مدفعي لحظة نهايته .

عندما أفقت تبين لي أنهم مساكين مثلي يعانون من ذات دائي خيل الي أنني سأموت قبل حلول العام الجديد فجمعت اولادي وقلت لهم أنني بذلت جهدا قاتلا حتى يستمتعوا بحياة أجمل من حياتي حين كنت طفلا مثلهم ، ثم لم أتردد في نصحهم بالتمسك بالقيم الاخلاقية كانت كلماتي أسرع من طلقات المدفع الذي لم أستخدمه بعد .

آه من تلك المخلوقات التي تمشي على قدمين وتضحك وترقص وتتغنى في خداع الرب والانس والجن . لا بد أن أفترض أنني سأعيش معهم عاما آخر . اذن فينبغي أن أضع تصورا لخطة عملية تتمشى مع مقتضيات طبيعة العصر وروحه ، فلان أعمل معه كذا وأقول له كذا وكذا .. فلان أتصل به يوم كذا وأطلب منه كذا وكذا ..لايمكن أن أدعهم يأكلونني لأنني رفضت ان آكل أحدا من قبل .

عاودني الارتباك وداهمتني الحيرة عندما تذكرت لصوصية الزمن ومجهولية اللحظة فقررت أن ابدأ العمل على الفور . اتصلت بأحدهم وكان يشغل منصبا كبيرا ويتمتع بنفوذ عالمي . بعد أول رنين لجرس تليفونه السري ، ترددت وشعرت بفقدان مفاجىء لثقتي بنفسي فأغلقت السماعة ومسحت عرقي وتبولت وأشعلت سيجارة وخلعت نظارتي وفعلت أشياء أخرى لا اهمية لها ، ثم عاودت الاتصال به من جديد ـ قال بآلية قاتلة :

ـ نعم .

ـ أنا فلان الفلاني .. ألا تذكرني؟

ـ لا .. آه .. لست أذكر فمشاغلي

ـ كما تعلم ـ فوق طاقة البشر .

ـ لقد طلبت منك كذا وكذا ووعدتني منذ عدة اعوام باجابتي الى طلبي

ـ في الحقيقة لست أذكر ، ولكن عموما سوف أبحث في هذا الامر ..

ـ ألم تتفضل سعادتك بالبحث فيه حتى الان ؟ انني صاحب حق كما

أوضحت بمذكراتي ومستنداتي .
قلت لك سوف أبحث في الامر بنفسي.
أرجوك ان وقتي ضيق والجنسيات أمامي متعددة .
- يا سيدي أنا صاحب أولاد ورزقي محدود بمرتب ضئيل ولا أخفي عنك أنني فكرت بالانتحار أكثر من مرة
- يا رجل حرام عليك .. اتق الله يجعل لك مخرجا .. لا تقلق .. مع السلامة ..
أغلق سماعته فطلبته مرة ثانية ، ظل يصرخ آلو آلو .. لم أتكلم . أغلقت سماعتي .. تتحدث عن الله ياكلب ؟ أنني أعرف تماما كيف تحافظ على مقعدك وبأي السبل يضيق وقتك أو يتسع للاستماع الى أمثالي من المكروبين .

نمت بعمق شديد رغم خوفي من الحياة والموت معا ، عندما استيقظت قررت الاتصال بآخر ، حدثني بلطف :
- أهلا يا أستاذ ، أين أراضيك يا عزيزي ؟
- أشكر سعادتك على هذه الحفاوة ، لكني ما زلت في الانتظار ، فماذا تم يا ترى ؟
- يا أخي حدثني أولا عن صحتك وعن أولادك وعن وطنك ، كيف الحال ؟
- لقد مرت عدة أعوام على اتفاقنا لكن شيئا لم يتحقق مما اتفقنا عليه .
- كل شيء سيكون على ما يرام باذن الله ، ولا تتعجل يا أخي مشيئة ربك .
رأيت صرصورا كبيرا يعتلي سقف الحجرة . تركت التليفون وأمضيت ما يقرب من ثلاثين دقيقة حتى تمكنت من اصطياده ، كان بارعا في المراوغة ، سحقته بعنف يكفي لتدمير دبابة . تذكرت في هذه اللحظة أن عديدا من أقاربي وأصدقائي وزملائي قد اعتذورا عن مواصلة الحياة قبل انتهاء هذا العام . نظرت الى الساعة ولم أجد مبررا لمواصلة الحديث مع عبقري زمانه ما دمت قد قررت قتله مثل زميله الاخر ، اتصلت بثالث فقال لي بثقة واصرار :
- آسف ، لن يتم لك ما تطلب لأنه ليس من حقك .
- كيف هذا ؟ أنني فعلت كذا وقلت كذا وكذا وكتبت ..
- لا تتعب نفسك معي ، ما تراه أنت منطقيا قد أراه أنا على خلاف ذلك تماما .
ألم أقل انهم يقررون مصيري ويتحكمون في أمنياتي ؟ .. لكن - وبغض النظر عن اختلاف لون الجلد فهذا الرجل جدير بالحياة مع أني أمقته .. اتصلت برابع فقال بوقاحة سافرة :
- لا .. لن أفعل لك شيئا ..
- لماذا ؟
- حسب مزاجي يا سيد ، أنا حر أفعل ما أشاء لمن أشاء وقت أشاء

صار عدد القتلى ثلاثة ، تابعت اتصالاتي التليفونية فارتفع عدد القتلى الى تسعة ، خشيت الاستمرار في الاتصال حتى لا ارتكب مذبحة تفقدني انسانيتي التي ما زلت اعتز بها ، وتسلبني وعيي الذي بدونه أموت .
اكتفيت بهذا العدد كنماذج ممثلة لبقية من يمشون على قدمين ، وبذلك أحقق نهاية سعيدة لعام ١٩٨٣ الذي ليس بأول الاعوام ولا بآخرها .

٢٠٤٣/١٢/٣١
كل الذين عرفتهم ماتوا ، حتى أنا أيضا مت ، في البداية

لم أصدق نفسي فذهبت الى مسقط رأسي القديم . اقتربت من الحارة لم أجد بيتا واحدا أعرفه ،وجدت بنايات ضخمة تطاول السحاب في ارتفاعها ، الوجوه المطلة من النوافذ والشرفات غريبة تماما على عيني ، أين البيت العتيق بسلالمه الخشبية المتآكلة ؟ أين تلك الايام التي تفتح فيها قلبي على نبتة حب خضراء أذاقتني نعيم الحياة ؟ اللعنة على هذا الغموض السخيف ، أنا لا أفهم شيئا ، لكني أتعجب كيف كان حماسي جنونيا لتحقيق أمنيات تافهة دفعتني الى اغتيال تسعة آدميين في لحظة واحدة رغم ان بعضهم كان يسكن في مشارق الارض والبعض الاخر في مغاربها ، انني ميت بالفعل ، كانت تنقصني سعة الخيال حتى يمكنني أن أتصور كل ما رأيته اليوم ابان حياتي ، لو كنت قد نجحت في هذا لما تمنيت ولما تحمست ولما قتلت . لكن الذي حدث أنني - كغيري ممن يمشون على قدمين - عجزت عن هذا التصور . لهذا وجدت نفسي مدفوعا بقوة خفية الى البحث بين ذرات التراب عن واحد على الاقل من الالهة التسعة الذين تألهت عليهم منذ ما يقرب من ستين عاما .

آخيرا نجحت في العثور على أحدهم بتراب اليونان . لم نتبادل الحديث وانما انفجرنا في البكاء معا على أنغام البوزوكي ، ثم شاركتنا المجلس جنية حضرت لتوها - كما قالت - من الارض السابعة ، وعلى الفور خلعت ملابسها وراحت ترقص بحيوية رائعة عمقت في نفسي الميتة الاحساس وبامتزاج كل عناصر الكون والزمان والمكان .

بعد وقت لم أدركه وجدنا أنفسنا فوق سطح الارض وسط مقابر الفراعنة ، لم أتوقف انا وزميلي عن البكاء كما لم تتوقف الجنية عن الرقص . لكن الانغام التي كانت تأتينا آنذاك اتسمت بطبيعة نورانية شفافة حالمة جعلتنا نتوقف عن البكاء ، بعد قليل هبط بيننا كائن جميل الهيئة حلو الرائحة ، خلع جناحيه وجلس معنا في صمت حالم فنمنا نوما أبديا لم نفق منه حتى الان .

تاريخ لا يعرفه احد :

انهمرت السيول والعواصف والبراكين امتزج الجليد بالحمم وبزغت الشمس جرت الانهار والبحار مقتحمة عواشقها مقررة مصيرها النهائي في ذلك الحين لم يكن أحد ممن تحدثت عنهم قد ولد بعد ولا بالطبع ومن ثم فان المقاعد التي جلس عليها هؤلاء التسعة بعد ذلك بملايين السنين لم تكن قد صنعت بعد ، لكن قلبي يحدثني ان الخلايا الدنيئة التي بدأت تزحف الى الارض في ذلك الزمان كانت تتأله هي الاخرى على بعضها بشراسة مضاعفة مما أدى الى بقاء بعضها وسقوط البعض الاخر .

سعد سالم - الاسكندرية

الشكل الفنّي في رواية الطغيان

بقلم: نزار نجار

ما هي الرواية ؟

الرواية مؤلف يسرد في صورة شاملة ومتعددة الجوانب ، وهي قصة حياة شخصية او عدة شخصيات متشابكة ، توضح تطور حياة هذه الشخصية او الشخصيات في تفاعلها المتبادل بدائرة الحياة المعقدة الممتدة ، والرواية تسمح بالتصوير المتسع للعالم الداخلي للشخصية وايضالحياتها الخارجية ، وبيئتها ومعيشتها .. باختصار : انها اكثر أشكال الفن الادبي تصويرا للمراحل التاريخية الانسانية ، وللتطورات الاخلاقية والفكرية بها ..

والكاتب كونستانتين فيدين يرى انه :لايوجد في الادب ضرب يستطيع ان يشمل الروح الانسانية بهذا الشكل اللانهائي من وجود الانسان ، وفي مثل هذا الشمول كالرواية ..

ولما كنا نقرأ فيها الحياة ، نقرأ في عالمها القيم والعلاقات الانسانية في المجتمع ، فيمكن ان نقول انها تنير الماضي ، وتستشرف المستقبل.

وهذه الرواية التي بين يدينا تقع في ثمانمائة صفحة تقريبا من القطع الكبير ، نشرها الكاتب (محمد ابراهيم العلي) على ثلاثة اجزاء ، فهي اذن ثلاثية ، وان كان (الروائي) لم يشر في قسمها الاول الذي صدر عام ١٩٧٨ ، الى أنها ستكون ثلاثية ، أما الثاني فقد نشره في عام ١٩٧٩ ، بعد سنة فقط ، والجزء الثالث والاخير صدر منذ عامين (١٩٨٣).

وضع الكاتب مقدمة صغيرة ، يشعر القارىء المتمعن في البداية ، ان هذه المقدمة ليست ضرورية على الاطلاق ، ولكن الكاتب بحسه الصادق ، يبرر لنا ذلك ، فيكتب في نهايتها مبينا حجته في التقديم ، فهو لا يريد ان يفقد الفن الروائي تقنيته الاساسية ، فيظهر الشخصيات ، ويكشف سير الاحداث ، لقد لجأ الى تسمية الامور بمسمياتها حتى لا يبتعد بالغرض التوثيقي عن وظيفته ، هكذا يقول الكاتب ، فهذه الرواية اذن وثائقية ، انها تجربة عاشها ، ومعاناة حقيقية يومية لاحداثها ، مر بها وشهدها وهو يريد ان يضعها ـ هذه التجربة وهذه المعاناة ـ امام جيلنا الشاب ليعيش تلك المرحلة ، مرحلة سورية ما قبل الاستقلال ، فيهضم ما فيها ، مستفيدا من دروسها وعبرها ، وما اغنى هذه الدروس وما اكثر هذه العبر ..

هذه الرواية ، رواية رحبة المدى، اذن ، تمتد الى آفاق عريضة ، رواية مسهبة ، زاخرة بالناس والاحداث واسعة سعة الحياة .. انها عبارة عن نظرة شاملة لأناس وأماكن ومدى واسع ، فهل يتوقع احد من كتاب كهذا ان يكون قد كتب بشكل دقيق ؟ ..

* كيف صور الكاتب الاحداث ؟

ـ توالت الاحداث عبر الفصول ، وهنا أسميها فصولا ، على الرغم من ان الكاتب أغفل تبويبها في الجزء الاول ، صحيح انه اعتمد الارقام في الجزأين الثاني والثالث ، ولكنه لم يعتمد الطريقة الفصلية التي تسهم في تسلسل الحدث ومتابعته . كان يلجأ الى السرد المباشر ، ويستمر به بطريقة مقبولة وممتعة احيانا ، ثم ينتقل الى المونولج

الداخلي (المناجاة) بل يمزج بينهما، بين السرد والمونولوج ، دون ان يستخدم اي فاصل شكلي ، كالخطوط ، او تنويع الاحرف الطباعية .
ها هنا يتحدث عن المختار :
ـ انه كمختار (لم يشر الى اسمه من اول الرواية الى آخرها) لا يعدو كونه آلة صغيرة في مصنع ضخم يحتوي فيه الدولاب الكبير الدولاب الصغير ، لتسير آلة المصنع الجهنمية مزيتة ومشحمة بعرق البسطاء ودمائهم ، وخاطب نفسه :
ـ لقد فهمت ذلك متأخرا جدا أيها المختار العتيد ، فهمته فقط حين وصلت السكين الى رقبتك.. قال لك البيك احرق بيدرا ، فرحت تحرق البيادر كلها ، قال اضرب فلانا فرحت تضرب القرية بأسرها هجر اسرة ، فهجرت اسرا ، اهدم بيتا ، فهدمت بيوتا .. وماذا بعد يا مختار ؟ ما هو الشيء الذي لم تفعله لخدمة أسيادك ، أنت يا مختار فقدت قوتك ، ولم يعد لديك ما تختاره لانك أضعت نفسك ، وقواك كلها ، في خدمة عدوك ، هذا حتى استنفذها :.
ويتابع الكاتب اضاءاته للازمة الداخلية عند المختار ويستعمل ضمير الغائب احيانا ، وتسير الاحداث ببساطة ، لتتمحور حول قضية اساسية ، قضية المسحوقين امام الطغيان .
يستمر الكاتب بطريقته السـ[illegible] من أول الرواية الى نهايتها ، يخـ[illegible]ـرق السرد احيانا بالوصف ، والتعليق ، والحوار والشرح ، يتدخل الكاتب ، يقطع الحركة ويقفز بالسرد من نقطة الى اخرى كأنما يحمل آلة تصوير ، يلتقط فيها عددا من الصور المتفرقة المبعثرة ..
ـ قال إحسان بيك : والله ان المدام حريصة على مصلحتنا . بينما تابع رشاد : وهل المدام الا واحدة منا؟ لقد أكلنا معها خبزا وملحا ، وأصلها من تركية ، ولكنها ردت قائلة : صحيح ان اهلي اتراك ولكنهم سكنوا في رومانيا ، قال رشاد :
اذن نحن ابناء جلدة واحدة ، بينما قال رشاد : اذن نحن نفوضك بكل الترتيبات.
عندما عاد الرجال الثلاثة في طريقهم الى المدينة ، اندست المرأة بسرعة في فراشها الى جانب زوجها ، وأخذت تبحث عن طرق الاستفادة من هذه الدعوة ، وبعد ان اطمأنت المرأة الى مخططها غفت .. بدأ الحديث في طريق العودة الثانية للرجال عن فرنسه والمستشار والحرب .. كانت الخيول والبغال تجر العربات وهي تسير متجهة الى المدينة ، والفلاحون يسوقونها وقد لف كل منهم نفسه بعباءته وفروته من برد الصباح .
قال رشاد بيك: هؤلاء فلاحو قريتي ـ قال ابوعمر انه البيك في سيارته ، .. ورد ابراهيم : لعنة الله عليه ..
(أقفز سطرين) ثم .. كانت خدوج امرأة جميلة وطيبة وزوجها رجل مسكين، الخ .. (١/١٣٤)
ولكن لماذا لجأ الكاتب الى السرد .. انه يريد التوثيق (هكذا هو يرى وأنا أراه ايضا).
ـ حزن الراعي على فقدان كلبه ، ورفع عصاه للاعلى ووقف فما كان من البيك الا ان سدد الى اعلى العصا فلم يصبها . وأطلق الثانية فأصابت رأس الراعي ، صاح البيك ، لم تصب بينما رد الوكيل : لقد أصيب يا سيدي ، وركض باتجاهه مع جمهرة من الفلاحين يرافقهم المختار ، ولما عاد المختار قال : لقد مات ، لقد فارق الحياة ، وهذه ارادة الله يا سيدي ، لقد انتهى يومه فغضب البيك وتابع منتفضا : اسمعوا الاتزيدوها .. قال الشيخ : نصيبه هكذا .. سقطت ورقته ١/٤٢
فالاحداث كثيرة ، ومختلطة ، وهو يعتمد على الاصطفاء أحيانا ، ولكنه يعود فيذكر كل شيء من اجل ان يوثق (عبارة هل هناك اهم من الفن ليست مهمة بالنسبة للكاتب بل هل هناك أهم من التوثيق) ؟
فالرواية وثيقة تاريخية ، يرجع اليها للتعرف على زمن معين وحالة معينة وأثناء السرد كنت ارى ان الكاتب على استعداد لأن يضم المز[illegible]د من نواحي الحياة صحيح انه وصل في الر[illegible]اية الى نهايتها وما زالت خيوطه معلقة ، ولكنه قدم لنا شيئا هاما عن الطغيان ، انه يريد ان يقول على الرغم من اننا في عصر الاختصار والسرعة لكن هذا الامر لايختصر الحياة ، انها هنا بكل امتدادها ورحابتها ، انها هنا في هذه الرواية ، انه لا يريد للرواية ان تستوعب المنجزات الفنية بقدر ما يريد لها ان تستوعب الحياة ..
وكان اسلوبه في طريقته تلك يتسم بالبساطة والسهولة ، ويخلو من اي تكلف او جهد في البحث عن الكلمات فكل شيء يسير سيره الوئيد ، وهو لم يكن

هنا ليدللب المثالي في الحياة بقدر ما كان يطلب الحياة نفسها ، بكل صدقها وبراءتها وحقيقتها ..

– جلس الفلاحون يتسامرون وقد أسندوا رؤوسهم الى كراسي القش وافترشوا عباءاتهم في ساحة المقهى على الحجارة المرصوفة او بعض الحصر العتيقة ، ونام أغلبهم بين الخان والمقهى ، وغطاؤهم عباءاتهم والسماء (١٥٠/١)

لقد اعتمد الكاتب في اسلوبه اللغوي على العبارات والصور ذات الطابع الاخباري ، وايثاره بعض العبارات كأنها اللازمة ..

– مالت الشمس الى أصيلها ٢/١٠٩
أشرقت نجمة الصبح ٢/٨٠
بدت نجمة الصباح ٢/٢٣٧
قرص الشمس يهرب مسرعا ، والشفق يحمر كوجنتي عنود اللتين أحرقهما وهج الشمس ٢/١٦٧
ارتفعت الشمس في كبد السماء ، واشتد حر حزيران يلفح وجوه الفلاحين والرعاة ٢/١٩٧

ومع ذلك ، فلو ألقينا نظرة شمولية على الرواية ، نظرة كاملة لعمل مسهب ، لقلنا ان اسلوب (الكاتب محمد ابراهيم العلي) الهادئ المنساب ، وثقته بنفسه ، أهلته لكتابة هذه الرواية الضخمة ، وهذا ما يدفعنا الى الاعجاب ، بهذا العمل المطول ، .. وان أفضل الاشكال الروائية هو استخدام المادة أفضل استخدام ، وقد حاول ذلك (العلي) ما استطاع ، حاول استخدام مادة الحياة بصورة اكثر عفوية وصدقا . ....

اما الوصف في هذه الرواية ، وهو من أشكال التعبير الفني فقدجاء هينا لينا ، ففي مطلع كل فصل تقريبا لجأ الى وصف البيئة ، والطبيعة بكل ما فيها من مشاهد ، ووظفها في بعض الاحيان لتخدم الفكرة ، كأنما كان وصفه للطبيعة يساعده في الكشف عن افكاره او مشاعره شخصياته ..

– بدأت الشمس تميل نحو الغروب، وقداسرعت نحو الاختفاء حتى لا ترى ماالذي سيحل بأولئك الفلاحين من الظلم ٢/٥٧.
– في الظل تقبع الكلاب لاهثة وألسنتها ممدودة .

وفي الظل يتآمر الطغاة على الفلاحين ، ويدبرون الدسائس والمقالب ، ويخططون لمزيد من الاذى للمساكين والضعفاء ٢/٦٨

– احمر الافق وبدا الوهج الحقيقي الممزوج باللون الازرق القاتم ، وانعكست الوان الغروب المتعددة الممزوجة على قطع الغيوم الصغيرة ، ورسمت الطبيعة كل شيء .. وزحفت الشمس مسرعة كما لو سرقت نفسها نحو الغروب .. وغاب نهار آخر ٢/٦٧

– وهذا القمر خطى الشمس ، ففي اول تموز بدا هلالا صغيرا ما لبث ان غاب هربا من رؤية الفلاحين ، كان يريد ان يقول للشمس سأسير وراءك اليوم مسرعا لا أريد ان أشاهد هؤلاء المساكين ٢/٦٨

بصورة عامة كان الوصف معتنى به ، فهو بيئي مشهدي ، كان الكاتب يتناول تفصيلات المشهد ، الحادثة المتفردة ، ويختار المشاهد المؤثرة ، فيرتفع في بعض المقاطع الى مستوى شفاف وجميل (بخاصة في تقديمه لمشاهد الطبيعة والقرية)

– الاحاديث تدور ، والشمس تهرب ، والمناجل تحدد عمر السنابل ، وغبار الحصادين وعرقهم يبلل اكتافهم بلون أحمر من التراب ، ويسقط قرص الشمس وينهض الحصادون ويردد الفلاحون : الله يعطيكم العافية ..

ثم يعودون ليستمروا في العزف على القصب والمزمار ، ويستمر العتابا وأبو الزلف .. ١/٩٨

ان محمد ابراهيم العلي يعطي وصفا دقيقا للقرية ، يطريقة تلفت الانتباه ، فأنت تشم رائحة الارض رائحة الحصاد ، رائحة الفلاحين وعرقهم، رائحة السنابل المتهاوية تحت المناجل .

ان الكاتب مهتم بوصف القرية ، لأنه ابن القرية ، وهو يعرف – تماما – ايام الحصاد ، والرجال .. ونقل الماء والليالي المقمرة ، وغير ذلك مما يحيط بالقرية .. وأنا أقول انه ليس هناك رواية استطاعت تقديم هذا الوصف الدقيق الواقعي مثل رواية الطغيان ، (طبعا من الروايات السورية) .

لقد رسم صورة القرية ، وجانبا من المدينة ، او لنقل سوقا صغيرا في المدينة ، حيث النجار الذي يصلح العربات ، والحداد ، والبيطار والخان، فجاءت صورة القرية دقيقة مفصلة ، وجاءت صورة المدينة باهتة الملامح ، لأنه لم يتوقف عندها ، لقد التقطها بسرعة . وبدون تفاصيل ..

كان يقدم الصور من خلال عينيه ومشاهداته هو ، وليس من خلال الشخصيات وشكل رؤيتهم للاشياء ..

فظهور اية شخصية لديه يصاحبه وصف القرية ، ومناظر القرية .. وقد أجاد في ذلك كثيرا ..واستطاع بمهارة ان ينقل لنا الجو العام الذي يحرك به شخوصه .. (المشاهد - الاغاني - الاحاديث التي تدور - الخ) ..

* اما الحوار فقدجاء مقبولا الفلاحون البسطاء ينطقون بما يناسبهم (عدا شخصية يوسف) المعلم المثقف ينطق بما يناسبه ، ايضا ، وكذلك البيك والمستشار .. ومارلين ، وشارونا فلكل شخصية حوارها الذي يدل عليها .. وقد وفق في اختيار اللغة المبسطة في الحوار ، اللغة السهلة الطيعة فتراوحت احيانا بين التركيز والبساطة المتناهية التي تقترب من العامية دون أن تكون عامية ، والكاتب نفسه اشار الى انه يريد ان يكتب بلغة يفهمها الناس البسطاء ،ولكنني رأيت ان الكاتب - في بعض الفصول- لا يراقب ما يرويه مما اوقعه في شيء من التكرار .. ويجدر بالاشارة الى انه ايضا بدأ يهتم باللغة اكثر في الجزء الثاني ، وهذا واضح ، على خلاف ما كان عليه في الجزء الاول ، وكذلك فعل في الجزء الثالث ، اذ ابتعد قليلا عن التداخل في الحوار ،ومفاجآت تقديم الشخصيات ، ولجأ الى ترتيب وضع الخط الصغير قبل الحوار ..

جاءت كلمات الحوار من صميم البيئة ، وتؤكد طابعها الريفي ..

- قال الاستاذ عادل :

- اسمع يا يوسف ، لا يمكن ان تنالوا حقوقكم الا بحالة واحدة ، اذا اتفق الفقراء جميعا ، وتعاونوا في الريف والمدينة ليضعوا حدا للظلم .

- آه ما اطيب البرغل ، برغل بالسمن والزيت ..

- الله يسلم يديك يا فطيم ، ما أطيب هذا البرغل ، والان بعد جوع يوم من الحصاد يأكل الانسان الحجارة والتراب ويراها طيبة فكيف البرغل .

قالت زنوبة :

لماذا تكثر من الكلام هذه الايام ياحسون ، ألا تخشى البيك ؟ أجاب حسون/

-لا لا يا زنوبة ، انا لا املك شيئا سوى هذا القميص الممزق ، لذلك لا اخاف شيئا ، المهم ان تكوني انت راضية عني ، فترقعين لي القميص حين يتمزق ، الناس يطعمونني ، ولذلك علي ان اقول الحقيقة ..

ولا تنسى ان الكاتب كرس فصلا بكامله ليدير حوارا غير واقعي ، ولست أدري لماذا أقحم هذا الفصل على الرواية (الفصل الحادي عشر من الجزء الثاني ٢/١٢٧) فالحوار غريب ، لا يمت الى الواقعية بصلة ، وان كان يريد الكاتب من ورائه المبالغة في تصوير الظلم والطغيان ..

* الشخصيات : طرحت الشخصيات نفسها بصورة مباشرة دون اي تمهيد لها ، وقد زادت ، بعد احصائنا لها ، على الثلاثين فهناك : رشاد بيك - والمختار الشيخ عبد الرحمن ، يوسف ابراهيم ، أبو عمر - خليل - ام عمر - خدوج - الراعي - زنوبة - صفية - مارلين - شارونا - المدام - صبري بيك - احسان بيك - المستشار - مدير المحطة - الحجي - السايس - مصطفى البيطار - النجار - الحداد - الوقاف حمد - جدوع - عنود - فطيم أخت يوسف - ابو ايوب - حسون المجذوب ..

ليست هذه الرواية ، رواية البطل الواحد ، او الشخصية الواحدة ، حتى البطل المتميز عن غيره لا وجود له ، بمعنى اخر ليست هناك شخصية محورية ، ولا مركز وسط ، انها رواية شخصيات متزاحمة ، يتقدمون اليك بهمومهم ، واحزانهم ، واحلامهم الصغيرة دون مقدمات والكاتب اتجه الى الشخصيات البسيطة العادية ، بشكل رئيسي ، الى الشخصيات التي تنتمي الى عالم الكادحين ، فرسم حياتها المعذبة والفقر والحرمان ، وما يحيط بالقرية من طغيان ..

ويبدو انه قد خلق نوعا من التوازن في شخصيات روايته ، فهو قد رسم شخصية رشاد بيك وواقعه المترف في كل شيء .. وفي المقابل رسم واقع الفلاحين ومعيشتهم القاسية ،

رشاد بيك لا يأكل الا الحمام المشوي ، والدجاج واللحوم ، ولا ينام الا في فراش وثير ، بين ذراعي المدام او مارلين او شارونا ، والفلاحون لا يأكلون الا الزيت والبرغل ولاينامون الا على الحصر العتيقة .. والافاعي تلدغهم ، والذئاب تهاجمهم ..

وقدجاء عرضه لشخصيات الفلاحين البسيطة يغمره الحنان والحب والعاطفة ، اما لشخصيات البكوات فهو مليء بالكراهية

والسخرية المبطنة والاحتقار ..

البيك هو الشر متجسدا .. هو الطغيان ..

والفلاحون هم الرضوخ الاستسلامي ، البيك مستعد ان يدوس على اي شيء او اي احد يعترض طريقه في سبيل تحقيق نزواته ورغباته .. فهو يقوم بالخطف والتهديد ، والحرق ، والضرب ، والقتل، وممارسة الجنس ، والشذوذ بدون حساب ، (ينبغي ان نلاحظ انه من الخطأ الفصل بين الشخصية وبين الحدث ، لان الحدث هو الشخصية وهي تعمل او هو الفاعل وهو يفعل) .

– ومشى البيك نازلا سلم قصره ، ونادى كلابه ، الجائعة ، بعد ان فك قيودها ، وتمشى على درب القصر نحو المقبرة ، وهو صامت يداعب كلابه الهائجة ، التي تتقافز حوله ، ويحرضها وعندما وصل قرب المقبرة شاهد (حسون، المجذوب) جالسا على ظهر احد القبور ، فترك كلابه باتجاهه ، حيث انقضت عليه من كل جانب ، وسارع حسون بعصاه فألقى احد الكلاب المتقدمة نحوه بضربة على رأسه ، بينما نالت البقية منه ، حتى مزقت جسده ونفرت الدماء من جميع الجهات ولم يمض وقت طويل حتى سقط صريعا بين اقدامها ، حيث عادت الكلاب بعد ذلك الى صاحبها وراعيها ، وكانت الضحكات الصفراء تصطفق في فمه .. ولم يزد ان قال لمرافقه الشيخ :

– أرأيت تلك النهايات التي أرسمها للناس الذي اريد ان اضع حدا لحياتهم ، ولم ينبس الشيخ بكلمة فقد لجمه الرعب ، وقوضه الخوف والمنظر المتوحش ٣/٢٩١

هذه لقطة رائعة ، لكن الكاتب لم يتوقف عندها كثيرا ، لم يمهد لها ، ولم يدخل في تفاصيلها ،ولكنها اعطت جانبا من شخصية البيك ..

جاءت شخصية البيك انانية ، منحطة ، فهو يمارس الجنس مع مارلين وشارونا (وهما يهوديتان) ومع الغجرية سعاد ، وزنوبة .. ويفكر بصفية التي تأبت عليه ، ورفضت المجيء الى قصره ، رغم التهديد ، وانا اقول ، ان الكاتب هنا كان موفقا الى حد بعيد ، في توثيق هذه الصورة ، وتحليلها ، مع ملاحظة هامة هوانه كان ينظر الى البيك نظرة احادية الجانب كان يأخذ الوجه الواحد (الوجه القمري) بكل سلبياته ..

– فتح باب القصر ، فسمع صرير الباب ، وخرج البيك حاملا سوطه يتبعه وكيله ، بينما ركض الغبس فهز الكرسي ليتأكد من سلامة تثبيت قوائمه على الارض جلس البيك ولم يلق التحية على الفلاحين وهم وقوف ، كان متجهم الوجه ، ولكنه أحمر مورد لكثرة ما شرب من العرق ، حلق لحيته وابان شاربيه المفتولين ، يرتدي قميصا مفتوح الياقة ، وتحته بنطال الفروسية وجزمته السوداء ، وقد خلع عنها مهمازيه ، يحمل بيده سوطا ويضرب براحة يده ، أصيب الفلاحون بالذعر .. حيث انه من المعتاد ان يسلم عليهم ١/٩٠

لم يدع صورة سلبية الا ورسمها لهذا البيك ، حتى هاجس الجنس بالنسبة له فقد كان دائم الحضور والالتهاب ، لكل النساء حوله ، ابتداء من المدام زوجة مدير المحطة ومرورا بمارلين وشارونا والنوريات ، حتى يصل الى صفية الشخصية الغائبة – الحاضرة .. فالكاتب يذكرها على السنة الشخصيات كافة : المختار ، الوكيل ، الشيخ ، زنوبة ، ولكنه لم يقدمها لنا ، ولم يعرها اهتمامه .

دفع الكاتب شخصية البيك من دائرة القرية الى دائرة اوسع ، فجعله يتنقل بين المحطات ، والمدن ، حتى اوصله الى بيروت ، حيث عقد صفقة السلاح مع اليهود أو المستشار ، لقد استخدم البيك كل من يساعده على حماية مصالحه ، استخدم المختار ، والوكيل ، والشيخ والازلام ، وتحالف مع البكوات المجاورين وكان النفاق والزيف والرياء علامات مميزة لأخلاقيات الازلام جميعا .

لم تنم شخصيات كثيرة في الرواية عدا شخصية البيك ، والمختار ، والشيخ، كان يبرز بعضها ثم يلجأ الى بترها ، وبقيت شخصيات الفلاحين شخصيات مقموعة ، في حين ان شخصية البيك – مثلا – نمت في النهاية ، فقد ظل يعتمد المراوغة ، وهو يغير مواقعه بحسب الظروف ، او لنقل يغير جلده كالحرباء ، فيتظاهر بأنه مع الثورة والثوار ..

يتداخل الحدث بيد الكاتب ،تمتد جبهات القتال في الداخل والخارج . ويصبح الاصدقاء .. الفلاحون.. ابناء المدينة /البسطاء ، عبر ظروفهم وعلاقاتهم يصبح مصطفى ــو وابراهيم والمعلم عادل، والنجار – والحداد حتى السايس في الخان يصبحون جميعا في مواقفهم السلبية

والايجابية رموزا لتلك المعركة القادمة التي ستدور ضد الطغيان ..

كيف يقاوم الطغيان ، ؟ على من يحرز الانتصار ، كيف يجري الصراع داخل الذات ، ما زال الكاتب يتماسك مع شخصياته ، يخلق نوعا من التوازن .. يقدم شرائحه في صفين متقابلين ، المسحوقين - الفلاحين - الكادحين - العمال - البسطاء - ثم البكوات - الاثرياء - الازلام - المرتبطين بالاستعمار والاحتلال .

يوسف ابراهيم عادل ابو المناشير، يقابلهم البيك - والحجي - والمختار ، والوكيل حتى الشيخ عبدالرحمن ايضا ، انها رواية واقعية حقا .

صحيح ان الكاتب لم يقدم لنا شخصية شجاعة ، لكنه قدم لنا مواقف مواقف تدل على ان هذه الشخصيات المسحوقة تدرك الممكن الذي يجب عمله لمقاومة الطغيان .. ومن هذا الادراك - المصدوم او المأزوم تولد ارادة حقيقية وقوية للوقوف في وجه الطغيان .
الانتظار جزء من المقاومة ، الانتظار الذكي الشجاع ،
يقول المعلم عادل :
- عليكم الان ان لا تظهروا شيئا من افكاركم ، حتى ننظم اعمالنا اكثر ، وستنطلق الاشارة في البدء من المدن ، لا تدعوا الحماس يغلب على افعالكم .
ويقول ابوعمر :
- علينا ان نفكر بطريقة سليمة ، والا فاننا سنكون ضحية المغامرة ويقول يوسف
- يجب ان ندع خوفنا ونزيله من نفوسنا وعلى كل فلاح ان يدرك ان حياته ملكه وليست بيد سيده الاقطاعي .

ان اغلب الشخصيات تتحدث تقريبا بالكلمات نفسها ، وهناك اكثر من شخصية ظلت مجردة مثالية تبدو كأنها صورة معلقة على جدار ، تنظر الى الطغيان ولكنها لا تقف في وجهه ، مثل شخصية خليل (الذي يغني بمناسبة وبلامناسبة) وحسين زوج صفية وفطيم ، وتمرد كما قدمت من قبل في الرواية شخصيات مبتورة مثل شخصية حسون المجذوب الذي انطقه بالحكمة والبيان على الرغم من انه مجنون القرية وشريدها ، وشخصية المعلم الثورية كانت مرسومة ولم يعمقها الكاتب على الرغم من اهميتها ،وكذلك شخصية صفية بالذات.

ان اشخاص (محمد ابراهيم العلي) يرتبطون بالحياة الريفية السورية ، وقد تميزت لغته في رسمه لها بنغمة واحدة ، لم تختلف على الرغم من اختلاف المواقف ، وهو بحق امين لبيئته القروية ..

اما جانب المدينة فلم يلتفت الكاتب اليه ، على الرغم من وجود صور للنضال ضد الطغيان والاستعمار آنذاك ، فكأنما لم يتذكر الكاتب المظاهرات ، التي كانت تجوب الشوارع ، والمسحوقين من ابناء القرية والفقراء فيها .. والثوار .. والمجاهدين .. والشهداء ، الذين كانوا يسقطون بالعشرات ..

ولولا هذه الفوضى في بعض المشاهد وفي تقديم الشخصيات وتزاحمهم ، وفي تداخل الفصول والاحداث ، والتكرار الذي اثقل جسد الرواية فجعلها مترهلة احيانا تعاني من الزوائد ، لولا بعض الاخطاء التي وردت في الطباعة والحرف الصغير كما في الجزء الاول ، لقلنا ان الشكل العام للرواية يحقق ما تطمح اليه الانظار.

لقد استدعى هذا العمل جهدا طويلا وصبرا اطول ، وان كل كلمة هنا تؤكد اصالة الكاتب ، الذي ينتمي الى هذا الوطن ، وهو صاحب رؤية للحياة تنمو وتتعمق ، ولولا لم يكن كذلك لما استطاع ان يخرج سواه من روايات ، وكان جهده مخلصا لا يمكن لاحد ان ينكره .. وتبقى نظرة الامل لديه تعانق احلام المستقبل المشرق ابدا ..

يقول بيلنسكي :
- نحن لا نطلب المثالي في الحياة بل الحياة نفسها ، كما هي سيئة كانت ام حسنة .. وذلك لأن الحقيقة هي انه حيث يكون هناك صدق يكون هناك ادب ايضا
ويكفي (محمد ابراهيم العلي) ، انه كان صادقا مع عمله الروائي هذا ..

نزار النجار .

---

* تأخر ظهور حسون المجذوب حتى الجزء الثالث من الرواية ، فأين كان في عالم الجزء الاول والثاني) .

العمارة المقدسة السورية..

في

وادي الرافدين

الزيقورات وبرج بابل

مفيد عرنوق

أول ذكر لبرج بابل، قبل المكتشفات الاثرية، كان من خلال الكتابات التوراتية، انها تقول ان تشييد برج بابل قد حدث بعد الطوفان، اي بعد ان أصبح لنوح بنون ومن ثم تكاثر البنون من صلب ثلاثة اولاد: سام وحام ويافث ولقد تعارضت هذه النظرية مع علم نشوء الجنس البشري اذ قرر العلم ان اول انسان عاقل ظهر في القرن الافريقي اوما يقال عنه الانسان الجنوبي وعمره مليونان ومئتا ألف سنة، بينما تحدد التوراة عمر الانسان كما يلي:

من آدم الى الطوفان ١٥٥٦ سنة
من نوح الى ابراهيم ٨٩٠ سنة
من ابراهيم الى المسيح ١٨٠٠ سنة

٤٢٤٦
ومن المسيح حتى اليوم ١٩٨٥

٦٢٣١ وهو مجموع عمر الانسان حتى اليوم بينما الرقم العلمي هو / ٢٢٠٠٠٠٠ / سنة وبه يسقط التقويم التوراتي بصورة مطلقة.

ان التقويم التوراتي انما وجد لخدمة ايديولوجيا يهودية تتعلق بالعرقية. فمن الواضح لدى جميع العلماء ان ليس لليهود عرقا محددا، انهم مجموعة اقوام رعاة أطلق عليهم اسم " عبريين " اي عابرو البوادي وهي من صفات البداوة غير انهم بعد ان دخلوا جنوبي سورية (فلسطين) قام النزاع بينهم وبين الكنعانيين ابناء البلاد الاصليين، واستمر هذا النزاع طول مدة اقامتهم حتى السبي والشتات دون ان يتمكنوا من السيطرة على جنوبي سورية او دحر الكنعانيين. ولما كتبوا التوراة، كانوا تحت تأثير فكرة العودة، فزوروا التاريخ والتقويم والاحداث لصالحهم، حتى يتبين للقارىء انهم من اصل ابناء البلاد وانهم اصحاب حضارة عريقة بينما لم يسهم اليهود في حضارة اي بلد من بلدان العالم التي سكنوها. ان ثروتهم منقولة تعتمد على الفضة والذهب فهي افقية بكل ما لهذه الكلمة من مضمون اقتصادي، واما فيما يتعلق بالايديولوجيا الفكرية فقد سرقوا الكثير من الفكر الديني السوري. انهم نسخوا عنه ما طاب لهم ان ينسخوا وزوروا فيه الكثير بما يتفق ومصلحتهم.

ان دراستنا هذه تطرح امام القارىء قصة بناء برج بابل في ضوء المكتشفات الاثرية وبناء الزيقورات في وادي الرافدين. ولقد تناولت التوراة قصة بناء برج بابل فأتت هذه القصة تشويها لمرامي هذه العمارة وهو تشويه مقصود من جملة ما شوهوا كما اشرنا اليه اعلاه. فلا بد لنا في هذه الحالة من اعادة تذكير القارىء بما جاء في التوراة عن برج بابل ومن ثم ننتقل الى علم الاثار والى الحقائق المؤلفة المتعلقة بهذا الموضوع. والفائدة المتوخاة تنوير القارىء بالنسبة لحقيقة بناء برج بابل والى جانبه الزيقورات وهما من العمارات المقدسة القديمة في بلادنا بما يسمح له باجراء مقارنة بين حقيقتها التاريخية وما جاءت به التوراة من تحريف وتضليل.

برج بابل في التوراة :
في الاصحاح العاشر من سفر التكوين يأتي الكاتب التوراتي على ذكر مواليد نوح ومن ثم اولاد ابناء نوح وكيف ان هؤلاء نشأت آلامهم وتفرقت في الارض بعد

الطوفان .
ومن ثم يأتي الاصحاح الحادي عشر من سفر التكوين ويحكي قصة بناء برج بابل. فيقول الكاتب :
" وكانت الارض كلها لسانا واحدا ولغة واحدة . وحدث في ارتحالهم شرقا انهم وجدوا بقعة في ارض شنعار وسكنوا هناك. وقال بعضهم لبعض هلم نصنع لبنا ونشويه شيا . فكان لهم اللبن مكان الحجر وكان لهم الجمر مكان الطين . وقالوا هلم نبني لأنفسنا مدينة وبرجا راسه في السماء . ونصنع لأنفسنا اسما لئلا نتبدد على وجه كل الارض . فنزل الرب لينظر المدينة والبرج اللذين كان بنو آدم يبنونها . وقال الرب هوذا شعب واحد ولسان واحد لجميعهم . وهذا ابتداؤهم بالعمل ، والان لا يمتنع عليهم كل ما يبنون ان يعملوه . هلم ننزل ونبلبل هناك لسانهم حتى لايسمع بعضهم لسان بعض . فبددهم الرب من هناك على وجه كل الارض فكفوا عن بنيان المدينة . لذلك دعي اسمها بابل لان الرب هناك بلبل لسان كل الارض ، ومن هناك بددهم الرب على وجه الارض " .

هذا ما اتى في سفر التكوين ، في الاصحاح الحادي عشر من التوارة بصدد بناء برج بابل واسبات هذا البناء وما آلى اليه هو والذين شرعوا في بنائه وكان ذلك تحت وطأة غضب الرب ، اي يهوه لان الكتابة اتت في عهد انتشار عبادة يهوه اله اسرائيل . فالقصة يهوية وليست ايلوهين نسبة الى ايل اله السوريين القدامى وبالضرورة اله ابراهيم الخليل والكنعانيين وجميع اقوام المشرق العربي .

نستخلص من هذه الكتابة النقاط

التالية :
١ - كاتب التوراة يعني بالتأكيد برج بابل وتعيين موقعه في ارض شنعار علما بأن علماء الآثار حددوا هم ايضا موقع البرج في ارض شنعار في العراق .
٢ - يقول الكاتب ان البابليين وهذا ما يعنيه اذا ما اكسبنا اللفظة صفة التغليب ، بنوا البرج تحديا للاله وبدافع الزهو والكبرياء لا تمجيدا للرب ، وبنوه من اللبن المشوي بدلا من الحجارة ومن الجمر بدلا من الطين ، وهذا يتفق مع مواد البناء في العراق قديما وحديثا لفقر المنطقة بالحجارة.
٣ - نزل الرب ليستكشف اعمال البابليين فينظر الى المدينة والبرج، وذلك لهول ما سمع عن هذا البناء ، وهذا يدل على ان البناء لم يكن تمجيدا للاله .
٤ - رأى بناة البرج شعبا واحدا ، و يتكلمون بلسان واحد فاعتبرهم قادرين على انجاز اي عمل يقررونه فجاشت في صدره الغيرة ، وماكان من الرب (اي يهوه) الا ان بلبل لسانهم حتى لايقووا على التفاهم فيما بينهم ومن ثم بددهم على وجه الارض .
وعند ذلك توقفوا عن البناء .

هذا ما تقوله التوراة حول بناء برج بابل دون ان تلمح الى بناء الزيقورات في شيء ، والان لنتتبع ما ترويه لنا المكتشفات الاثرية عن هذين النمطين من العمارة وهما يقعان تحت اسم " الزيقورات " ومعناها " العالي" تلك العمارة التي اشتهرت بها المدن السورية في العراق القديم والتي صح ان يطلقوا عليها اسم" الاهرامات المدرجة " تلك العمارة التي يرقى تاريخها الى اواخر الالف الرابع قبل الميلاد .

في المستندات المسمارية :
تحدثت الكتابات البابلية كثيرا عن الزيقورات (برج بابل يعتبر من نمط الزيقورات) ويعود اقدم هذه الكتابات الى القرن ٢٢ قبل الميلاد في عهد الملك جوديا لمدينة كغسن الواقعة في منطقة ما بين النهرين المنخفضة على بعد ٨٠ كم من مدينة اور ، كما عثر على كتابة للعاهل السومري في دينة كغسن ثايل ، على ذكر معبد " اي با " الملقب بمعبد الطوابق السبعة المقام باسم اله المدينة ، " ننجرسو " ومنذ ذلك الحين، والملوك يتنافسون على بناء الزيقورات تلك العمارات الدينية متباهين بعظمتها وجلالها .
أنا نقرأ للملك الكلداني نبوبلاصر (٦٢٥ - ٦٠٥ ق . م) هذا النص :
" مردوخ السيدامرني بشأن " ايتيمينا نكي " (ومعناه برج بابل") ذي الطوابق وقد بدأ يتضعضع قبل عهدي ويتهدم ، ان اقيم اساساته في قلب العالم الاسفل ، ورأسه اشبه ما يكون في السماء" ويتابع العاهلكلامه " صنعت طينا مشويا " ولما

كان الامر يتعلق بأمطار السماء التي ليس لها حدود او بسيول هائلة ، فقد جلبت امواجا من الغار عبر قناة "اراهتو وامسكت بقصبه ثم اخذت المقاييس وفق نصح الآلهة : شمش واود ومردوخ ، اتخذت القرارات وحفظتها في قلبي ، كما احتفظت بمقاييس البرج في ذاكرتي وكأنها كنز . لقد وضعت في الاساسات تحت القرميد الذهب والفضة والاحجار الكريمة من الجبل والبحر . وامرت بصنع صورة ملكية لي حاملة الى ديهشيكو " ، ووضعتها في الاساسات ، ومن اجل مردوخ سيدي ، احنيت عنقي ، وخلعت ثوبي الشعار الملكي ، ووضعت فوق رأسي الآجر والتراب .

اما بالنسبة ل " نبوخذ نصر " ابني البكر العزيز على قلبي ، فقد حملته الطين وتقدمات الخمر والزيت كما حملت اياها اتباعي ".

فيبدو ان مثل هذه الاعمال كانت تتطلب عددا كبيرا من العمال وهذا امر طبيعي ، اذ ان نبوخذ نصر لم يستخدم اتباعه فقط بل غيرهم من الشعوب . انا نقرأ على لسان نبو بلاصر العبارة التالية التي ينهي بها تسجيله بالحروف المسمارية لعمله العظيم هذا حيث يقول " جميع الشعوب ومن امم عديدة ، اجبرتهم على العمل في بناء ال " ايتيمينانكي " و أقمت في اعلاه مسكن مردوخ سيدي " مردوخ هو اله بابل " .

الى هنا ينتهي التسجيل على لسان نبو بلاصر الكلداني احد مرممي برج بابل في المرحلة التاريخية الاخيرة .

ولقد عثر على مستند منسوخ عن الاصل وبالحروف المسمارية تحت عنوان : " لوحة ايزاجيل " وهو المعبد الاول للاله الاول مردوخ في بابل ، وهذا المستند محفوظ في متحف اللوفر في باريس تحت رقم ٦٥٥٥ آ . و / ويعود الى العهد السلوقي ، وبالتحديد الى الشهر التاسع في اليوم ٢٩ من السنة السلوقية في عهد سلوقس الثاني (١٢ كانون الاول ٢٢٩ ق . م . والمستند مكتوب اصلا في مدينة اوروك . نقلا عن اصل اكثر قدما عثر عليه في بودسيبا المدينة القريبة من بابل .

من دراسة هذه اللوحة المعقدة استطاع علماء الاشوريات من ترجمة القسم المتعلق بالقياسات العائدة لبرج بابل وهذه خلاصتها :

الطابق	الطول م	العرض م	الارتفاع م
الاول	٩٠	٩٠	٣٣
الثاني	٧٨	٧٨	١٨
الثالث	٦٠	٦٠	٦
الرابع	٥١	٥١	٦
الخامس	٤٢	٤٢	٦
السادس	٣٣	٣٣	٦
السابع	٢٤	٢١	١٥
			٩٠ مترا

اي ان برج ايتمينانكي او برج بابل ذو شكل مربع بالنسبة لاساساته دون الاطار الخارجي وان ارتفاعه يبلغ ٩٠متر اما المحيط الخارجي للبرج فهو دائري وادراجه لولبية .

في مستندات علم الآثار :

منذ مئة عام واللقى الاثرية تتالى في بلاد ما بين النهرين مغذية دون انقطاع علماء الاثار والعلوم التاريخية . وكما كان برج بابل احد انماط الانشاء المعماري المسمى " الزيقورات " اي العالي او المرتفع ، كان لا بد من الالمام بهوية هذا الفن المعماري الشهير .

لقد عثر العلماء على العديد من عمارات " الزيقورات " سواء اكان عن طريق رسوم على اسطوانات او لوحات ام عن طريق العثور في الطبيعة على اساسات بعض الزيقورات وعلى ماتبقى من جدرانها ولقد وجد اهمها في المدن الرافدية التالية :

اور - اريدو - العبيد - لارسا - اوروك، حمام - شورغال - اوركو ريفالزو - بالوقات - سوز - شوغا لمبيل - خفاجة- اشور - كارشوكيلتي - كلخ - اوشاروفين- تل ارمه - تل براق - ماري .

هذه هي المدن المكتشفة التي احتوت انماط " الزيقورات " سواء وفق رسوم على اسطوانات او لوحات أو على الطبيعة ، وهي عديدة ومنتشرة في بلاد ما بين النهرين يبلغ عددها المكتشف ٢٧ زيقورات ، ورغم هذا العدد الضخم فان عددها الاصلي ينوف ذلك حتما . لأن المدينة الواحدة في بعض الحالات كانت تضم أكثر من زيقورات واحدة كما ان ثمة مدنا معروفة باسمائها فقط دون اكتشافها حتى الان قد يعود الى ان قسما من منطقة سومر تغمره حاليا المياه مع ترجيح العلماء ان هذا القسم كان في القديم جافا ، ولذلك فلا يستغرب العلماء في

حال ثبوت هذه النظرية ان تكون هناك احتمالات تؤدي الى العثور تحت طبقة المياه الحالية، على العديد من الاثار ومنها الزيقورات، انها نظرية مجردة حتى الان، بانتظار التثبت منها او رفضها .

ان انماط الزيقورات المرسومة على لوحات او اسطوانات، منها ما هو نافر على سطح جرار تعود الى عهود مختلفة ترقى بنا الى الالف الرابع والثالث، ومنها ما يعود الى الالف الاول قبل الميلاد، وكلها ذات طبقات ترتفع تدريجيا بدءا من ثلاث الى اربع فخمس طبقات واخيرا الى سبع طبقات . أما الاشخاص المرسومة حول اللوحة سواء في الاعلى او الاسفل، فلم تتحدد هوية مقاصدها او الاعمال المنوطة بها .

ان اهم رسوم الزيقورات هو ما وجد في سوز ويرقى تاريخها الى القرن الثاني عشر قبل الميلاد، وتعتبر اللوحة بمثابة مجسم صغير لطقس ديني يقام وقتئذ فوق مرتفع ويطلق عليه اسم : " شروق الشمس " ومثل هذا التعبير يدخل في زمرة الطقوس " الشرق اوسطية " ومن هنا تبدو اهمية هذه اللوحة، وتفسيرها كما يلي :

" على الحرم المقدس يرتفع برجان ومن ثم وبعد درجتين او ثلاث، نلاحظ مكانا لتقديم الخمور وآخر لحرق البخور . ونشاهد شخصين راكعين الواحد قبالة الآخر، وكأنهما يمارسان بعض الطقوس ونلاحظ بجوار ذلك، بعض الادوات مثل : منضدة القرابين والى جانبها القرابين ومن ثم اعمدة وحوض ماء واجران للذبائح كما توجد شجرة بجانب نصب (٢) ان كل هذه المفردات تعتبر سورية الاصل شرق اوسطية .

لقد سجل العلماء بنتيجة دراساتهم للعمارة المقدسة (الزيقورات) في ضوء ما عثروا عليه على الطبيعة، فانها تشتمل على اربعة انماط كما يلي :

١ - بشكل مستطيل وقد وجد في الجنوب، في مدينة سوز واوروك ونيبور ويتم الارتقاء اليها بواسطة مدرجات .

٢ - بشكل مربع وجد في الشمال، في مدينة اشور وكلخ (غرود) وخرسباد وكار توكولني، ونينورتا، ويتم الارتقاء اليها من مدرج فوق منحدرات

٣ - مختلط الشكل، القاعدة مربعة كما في النمط الشمالي ويتم الارتقاء اليها من على مدرجات بالنسبة للطوابق العليا . ان برج بابل يقدم المثال الاكمل لهذا النمط .

٤ - تقوم العمارة فوق سطح مرتفع وهو الشكل البدئي للزيقورات .

في المفهوم الديني :

تلتقي جميع انماط الزيقورات في فنها المعماري، على اساس عاطفة دينية واحدة . وقد تناول علماء الاثار والمعماريون والمؤرخون، بحث الدوافع التي حدت بالسوري القديم في بلاد مابين النهرين، الى تشييد هذه الابنية نلخص آراءهم فيمايلي :

أولا : ان الذين يخضعون الزيقورات الى مفهوم جنائزي، يعتبرونها قبرا لاله او ملك، وقد يكونون متأثرين بمقاصد اهرامات مصر التي كانت معدة لان تكون قبرا للفرعون .

ثانيا : والبعض من العلماء يعتبرها رمزا كونيا . فبرج بورسيبا كان يطلق عليه " بيت السبعة مرشدين الى السماء والارض " فهل يعني العدد سبعة، الافلاك السبعة التي تتحرك ضمنها الكواكب السبعة ؟ انهم يطلقون على برج بورسيب صفة " ذو السبعة طوابق " وبذلك يكون كل طابق رمزا لكوكب، واما لونه فمتجانس مع صفة كل كوكب : من اسود الى برتقالي فأحمر وأبيض وأصفر وذهبي وفضي، انها فرضية دون اي اثبات رغم ان بعض الكتابات المسمارية تشير الى حد ما وفق ما فسره العلماء الى ان الالوان التي عرفت بها الزيقورات في اور هي : الابيض والاسود والاحمر والازرق، وقد ذهب هذا القسم من العلماء وعلى رأسهم العالم الانكليزي ليتابي الى الترجيح ان الزيقورات هي مكان للاستراحة .

ثالثا : وفي نهاية القرن التاسع عشر عدل العالم ليتابي نظريته بقوله ان هذا البناء هو عرش الاله ومذبح حقيقي .

رابعا : اما نظرية العالم المهندس وو . اندره، فقد بدت اكثر واقعية اعتمادا على علم الاثار حيث يقول : تمثل الزيقورات قاعدة ضخمة يرتفع فوقها معبد بمثابة مسكن للاله، وكان على الاله ان ينزل من مسكنه الى مستوى المدينة اي الى مستوى البشر حيث يوجد معبد آخر في الاسفل، يمكن للبشر ان يتوقفوا فيه ويعاينوا الاله .

خامسا : ان الاخصائيين في المانيا انتقدوا نظرية اندره وعلى رأسهم العالمان سكوت، ولنزن، علما بأن جوهر النظرية يمكن الاحتفاظ به مع بعض التعديلات، فقد أظهر علم الآثار منذ الالف الرابع استعداد سكان ما بين

النهرين الى ان يقيموا بيتا للاله يعلو بيوت السكان . وهذا ينفي القول بأن ارتفاع المعبد انما جاء تصميمه هكذا للخلاص من الطوفان فيما اذا حدث . ان الكتلة المرتفعة تعبر عن اول رغبة للانسان في التسامي متوجها الى الاله ومتسولا اليه عن طريق القرابين. وهذه العاطفة المتسامية بدأت في الظهور منذ الالف الثالث واستمرت تعمر الصدور فبدأت معها المعابد ترتفع تدريجيا على ايدي الملوك الى ان بلغت ذروتها في برج بابل مع الاحتفاظ بمعبدين : واحد في الاعلى مخصص لسكن الاله وآخر في الاسفل حيث يتجلى لعباده .

يبدو ان النظرية الاكثر رواجا حتى اليوم هي الواردة في الفقرة الخامسة اعلاه كما جاءت على لسان " سذوت " و " لنزن " ، علما بان الزيقورات توصف بعدة صفات في بعض المدن التي اقيمت فيها .. ففي آشور يسمونها : " بيت جبل الكون " وفي بورسيبا " بيت السبعة مرشدين الى السماء والارض " . وفي اور " بيت الملك المرشد العادل " وفي كيس : " بيت ربابا واينينا العالي ، رأسه عالي مثل السماء " وفي نيبور " بيت الجبل " وفي لارسا " بيت اتصال السماء بالارض " ، وفي بابل : " بيت اساس السماء والارض " كما توجد اوصاف اخرى . فتعداد هذه الاوصاف يدل على كثرة مثل هذه المعابد مع احتفاظها كلها بصفة مشتركة ، صفة البيت اي المعبد الجامع بين السماء والارض .

نستخلص من كل هذه التعليقات ما يلي :

١ - الزيقورات ، بالاساس ، هي معبد للاله الساكن في الطابق السابع اي في اعلى الزيقورات ، ولما كان الناس بدافع الايمان يرغبون في معاينة الاله ، أقام المهندسون في العصور القديمة ، معبدا في الطابق الاسفل حيث يتمكن الناس من عبادة ومعاينة الههم ، بدلا من ان يبقى الاله في الطابق الاعلى بعيدا عنهم .

٢ - كان الملوك يفاخرون بترميم الزيقورات وتجديدها مضيفين اليها طوابق اخرى الى ان وصل عددها الى سبعة . واما من حيث الارتفاع فمن ثلاثين مترا الى تسعين مترا وهو عمل جبار يتطلب عاطفة دينية عامرة بالايمان وعقلا ناميا استطاع ان ينهض بهذا الفن الانشائي في العمارة ، كما يتطلب ارادة صلبة تتمكن من هذه الانجازات العظيمة بالنسبة للوقت والجهد تلك الانجازات التي اندرجت في تعداد عجائب الدنيا .

٣ - والنظرة للحياة القائمة على اساس العاطفة والعقل والارادة ، هي نفسها لدى الانسان قديما وحديثا ، فهي شأن انساني تتغير معالمه بتغيير وسائل الانتاج والتطور .

٤ - والملاحظ في بناء الزيقورات ، ان اتجاه الانسان هو في طريقين : الاول نحو الاعالي في تساميه نحو الله ويفسر ذلك بفعل الابراج المرتفعة نحو السماء . والثاني رغبة الانسان في الاتحاد مع الله او المثل الاعلى وما كان منه الا ان انزل الله على الارض في معبد يقوم في الطابق الاسفل من طبقات البرج وكذلك يعاين الله وينهض معه الى الاعلى في طريق المثل

٥ - اننا لا نستغرب كل هذه الاتجاهات الانسانية المتطلعة الى الاعلى فلقد رافقت البشرية قديما وحديثا دون انقطاع انها عنوان الدفع الروحي نحو الارتفاع والتسامي ، ان كتدرائيات اوربا تتضمن في بنائها وفن عمارتها ورسومها اروع المعاني التي اعتنقها الانسان السوري القديم في بناء ابراجه المقدسة . من عاطفة دينية مؤمنة الى عقل مستنير متطور الى ارادة فذة تستهين بالصعاب في سبيل تجسيد مراميها الروحية . ان كاتدرائيات اوروبا ذات الفن القوطي تصور مرحلة تطلع الانسان الى الاعلى اي حركة عاطفته من الارض الى السماء . وما المذبح المقدس في الكاتدرائية او آية كنيسة سوى ذكريات اتحادنا بالله ، وتطلعنا الى الاعالي الى الخير والحق والجمال . وما يقال عن الكاتدرائيات ينطبق على المساجد والمعابد في شتى الاصقاع ، ان النزعة الروحية قديما وحديثا هي من جوهر واحد ولسنا بحاجة الى اعطائها تفسيرات مختلفة تقلل من قيمتها .

بدون تعليق :

لديك ايها القارىء ما كتبت التوراة عن برج بابل وما كتب عنه علماء التاريخ والآثار ، اعد قراءة النصين واحكم على ما قرأت .

المراجع :

- التوراة

- فلك نوح وبرج بابل - اندره بارو .

مفيد عرنوق